مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

مجلة فصلية يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

السنة الأولى - العدد الأول - يوليو ٢٠٢٢م

الدِّراسَاتُ اللُّغَوِيةُ
في غَرِيبِ الحَدِيثِ النّبوِيِّ الشّرِيفِ

قِراءَةٌ في كتاب
الإمتاعِ والمُؤانَسَةِ

القِرَاءَةُ أُفُقًا للكتَابَةِ: كَيفَ
تَبنِي القِراءَةُ الكَاتِبَ العَمِيقَ؟

الاسْتِدْعاءُ الثّقافِي في مَسْرحية
الصِّراعِ بين الظّلامِ والنُّورِ

المُثَنّيَاتُ في
التُّرَاثِ اللُّغَوِيِّ

الشّارقة قلعةُ علْم، ومنارةُ
ثقافة، وصَرحُ معرفة

نسخة بي دي إف (PDF)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ
قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾

[يوسف الآية ١-٢]

صدق الله العظيم

اللغةُ العربيّةُ من أطولِ اللغات عُمْرًا وأوسعِها مُعجَمًا وأروعِها بيانًا

صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي

عضو المجلس الأعلى للاتحاد حاكم الشارقة

مجلة مجمع اللغة العربية بالشارقة

مجلة أدبيّة لغوية تصدر عن

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

السنة الأولى - العدد الأول - يوليو ٢٠٢٢ م

رئيس التحرير

د. امحمد صافي المستغانمي

أعضاء التحرير

أ.د. بن عيسى باطاهر

د. فكري النجار

أ. شيماء عبد الله

أ. هبة هشام

منسق العلاقات العامة

أ. ماجد الهولي

التصميم والإخراج

محمد خيّال

المراسلات

هاتف : 400 60 51 6 971+

فاكس : 410 60 51 6 971+

ص.ب : الشارقة ، 1973

shj_ala www.alashj.ae

Sharjah.ala info@alashj.ae

مجمع اللغة العربية بالشارقة

المحتويات

افتتاحية العدد ٦

واقعُ اللّغة العربيّة في القارّة السّمراء ١٢

الرّوائيّة أحلام مستغانمي في ربوع مجمع اللّغة العربيّة ١٦

المَقامَةُ التّتاليَّةُ ١٨

الدِّراسَاتُ اللُّغويةُ في غَريبِ الحَديثِ النّبويِّ الشّريف ٢٤

القِرَاءَةُ أُفُقًا للكِتَابَة: كيفَ تَبني القِراءَةُ الكاتبَ العَميقَ؟ ٢٨

المُثَنّيَاتُ في التُّراثِ اللُّغويّ ٣٢

لغتي ٣٦

إشْكاليّةُ الضّادِ والظّاءِ عِنْدَ اللُّغويينَ العَرَب ٣٨

قِراءَةٌ في كِتابِ الإمتاعِ والمُؤانَسَةِ لأبي حَيّانَ التَّوحيديّ ٤٢

المحتويات

يا أيّها الحاكمُ سلطان ٤٦

جُذورُ العَداءِ للعَربيّةِ الفُصحَى والدَّعوةِ إلى العَامّيَة ٥٠

الاسْتِدْعاءُ الثّقافي في مَسْرحية الصّراع بين الظّلامِ والنُّور ٥٤

زِفافُ الكَوْنِ مَبْعَثُك ٦٠

المَلامِحُ الدِّرامِيَّةُ في الشِّعْرِ العَرَبيِّ ٦٤

إبْراهيمُ السَّامَرّائي ومَنهجُهُ في سَعَةِ العَرَبيَّةِ ٦٨

حَولَ الإبْداعِ والتَّجديدِ في الشِّعْرِ العَرَبيِّ ٧٢

التّصحيفُ المُضاعَفُ ٧٦

مِنْ فَيْضِ التَّجلّيات ٨٠

الإضمار على شريطة التفسير في القرآن الكريم ٨٢

غلاف العدد

السنة الأولى - العدد الأول - يوليو ٢٠٢٢ م

مجلة فصليّة يصدرها مجمع اللغة العربية بالشارقة

مجلة أدبية لغوية تعنى بقضايا اللغة العربية وآدابها

لمشاركاتكم ومقترحاتكم يرجى التواصل على البريد الإلكتروني Magazine@alashj.ae

لزيارة موقع مجمع اللغة العربية بالشارقة امسح رمز الاستجابة السريع بكاميرا الهاتف

الشّـارقـــة قلـعـــةُ عِـلْـــم، ومنـــارةُ ثقـافــة، وصَــرحُ معـرفـة

للشّارقة في رقبة كُلّ مُثقَّفٍ دَيْنٌ مُستَحَقٌّ

د / امحمد صافي المستغانمي
الأمين العام لمجمع اللغة العربية بالشارقة

الكتابُ يُعرَفُ من عُنوانه، وتُعرَفُ المدُنُ العتيقةُ والحواضرُ المُنيفةُ بمبانيها وقصورها، وأسوارها وأبوابها، وتاريخها وساستها، وإذا رَمَتْكَ الأقدارُ وزجّت بك الأسفارُ إلى الشّارقة الباسقة، الشّامخة الباذخة، فإنّك ستحمدُ ما فعلَتْ بك الأيّامُ، وقَدَّرَتْهُ لك اللّيالي، وسَيَهْنَأُ بالُك، ويَقَرُّ بَلْبالُك، ويَبْهَتُكَ ما تراهُ من مآذنها وقُبَبِها، وصوامعها ومساجدها، ومعاهدها وجامعاتها، وقلاعها وحُصونها، وحدائقها ومُنتزهاتها، ودورها وبُيوتها، وقصورها وناطحات سحابها.

وحين تتجوّلُ في ضواحيها وأحيائها، وتمشي في شوارعها وحاراتها، فإنّ طُمأنينةً هادئة تَنزلُ بك، وسعادة غامرةً تنتابُك، وبهجةً نديَّةً تتغشّاك، وسكينةً إيمانيّةً تُسَرْبِلُك، وتعود بك الذّاكرةُ إلى الفردوس المفقود، والمجد التّليد الذي شيَّدَهُ الأجدادُ في أرض الأندلس السّاحرة، الآسرة العاطرة.

وإذا كان العصر الذّهبيُّ الأندلسيُّ قد ولّى، وإذا كان زمنُ بني أمّيّة الجميل قد انقضى، وفترةُ ازدهار العلوم والفنون في الدّولة الإسلاميّة في عهد بني العبّاس قد اندثرت وغابت، فإنّ إمارة الشّارقة رسمت في العصر الحديث تاريخَ الثّقافة من جديد، وبعثته من هُمود، وحرّكته من جُمود، وعادت بمجد الحضارة الإسلاميّة إلى عنفوانه وشموخه، وسُمُوّه وبُذوخه، وكتبت بحروف المجد الذّهبيّة صفحةً مُشرقةً غرّاء، ناصعةً بيضاء، وسطّرت ملحمةَ الثّقافة والعِرفان، وأوديسةَ الشّعر والبيان، وأحْيَتْ بيوت الشّعر، ورفعت رايةَ التّعليم، وشيّدت المحافل والمجامع، وهي تُنادي بملء فيها في كلّ محفل، وترفعُ عقيرَتها في كلّ مجمع مُناديةً الأجيال: أنِ اغدوا إلى حَرْثِكم على بصيرة، واسْعَوْا في طلب العلم بهمّة، وخُذوا الكتاب بقُوّة، وأْوُوا إلى حِصْن الثّقافة الحصين، واعتصموا بحبل الإيمان المتين، ولُوذوا برُكنه الرّكين، واستمسكوا بالقلم والقِرْطاس، والكتاب والكُرّاس، فإنّ العلمَ للأجيال نِبراس، وهو زينتُكم في أعين النّاس، وهو ورقتُكم النّاجحة، وتجارتُكم الرّابحة، وبطاقتُكم الثّقيلة يومَ تُوزنُ أعمالُكم عند ملك النّاس إله النّاس.

لا أريد الابتعادَ عن الشّارقة السّامقة، ومعالمها الثّقافيّة الباسقة الشّاهقة التي تشهدُ عند القاصي والدّاني، والقريب والبعيد، والصّديق واللّدود، بأَنَّ وراءَها حكمةً بانية، وفلسفةً واعية، ورؤيةً رشيدة، ورسالةً سديدة، وإلها نصيرا، وربّا غفورا.

وكما أنّ البيوتَ العامرةَ بالخير، الحافلةَ بالمكارم تدلُّ على أنّ أصحابها ذوو فَضْلٍ ونُبل، وأصحابَ علم وحكمة، وهمّة وفطنة، فكذلك المدنُ والحواضرُ، والممالكُ والإماراتُ، يَدُلّ مظهرُها وجمالُها، وتنظيمُها وتنسيقُها، على بانيها ومؤسّسها.

وإذا كان التّاريخُ يذكُرُ فَضْلَ الخليفةِ المؤيَّدِ المُسدَّدِ صَقْرِ قريش عبد الرّحمن الدّاخل المؤسّس الفعليّ لبلاد الأندلس، الذي استطاع بالمواهب الرّبّانيّة التي أنعم الله الجليل بها عليه أن يضعَ اللّبنات الأولى في صرح الأندلس العظيم، وإذا كان التّاريخُ يحفظُ صنائعَ هارون الرّشيد، ذي الرّأي السّديد، الذي جعل شغلَه الشّاغلَ نشرَ العلوم، وتعليم اللّغة، وتحفيظ القرآن، ورواية الحديث، حتّى كتب عن عهده المجيد العالمُ الزّاهدُ عبدُ الله بنُ المبارك كلمته المشهورة التي رواها عنه ابنُ قتيبة الدّينوريّ في تاريخ الخلفاء: "ما رأيتُ عالما ولا قارئا للقرآن، ولا سابقًا للخيرات، ولا حافظا للحُرُمات، في أيّامٍ بعد أيّام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وأيّام الخلفاء الرّاشدين والصّحابة، أكثرَ منهم في زمن الرّشيد وأيّامه. لقد كان الغلامُ يجمعُ القرآنَ وهو ابنُ ثماني سنين، ولقد كان الغلامُ يستبحرُ في الفقه والعلم، ويروي الحديث، ويجمعُ الدّواوين، ويُناظرُ المعلّمين وهو ابنُ إحدى عشرة سنة، ولم يكن ذلك إلّا بكثرة إنفاقه واهتمامه بالعلم والعلماء وطلّابه منذ الصّغر".

وإذا كان التّاريخ يحفظُ للخليفة المأمون حُسْنَ صنيعه في تحفيزه العلماء واللّغويّين على ترجمة كتب الحكمة اليونانيّة، وشتّى أسفار العلوم وتصانيف الفنون من الفارسيّة والهنديّة والسّريانيّة، وكان مجلسُهُ قِبلةً للعلماء والفقهاء، وموئلاً للشّعراء والأدباء، يؤمُّهُ خواصُّ أهل الثّقافة لمذاكرة العلم والأدب، والشّعر والفقه والفتاوى، وإذا كان التّاريخُ قد حَفِظَ في ذاكرته أنّه كان يُشجّعُ المترجمين بإعطائهم زنة الكتاب المترجَم ذهبا، جزاءً وِفاقا على همّتهم العالية في التّرجمة، وحرصا منه على جَلْب العلوم والفنون من كل أصقاع العالم في عهده الجميل.

وإذا كانت قرطبة، صاحبة الزّهراء، وقصر الحمراء، ومسجدها العظيم العتيق، وقصرها البديع الأنيق، فاتنة الملامح، مُحرّكة القرائح، قد أثارت شَجوَ ابن زيدون وحرّكت عواطفه في قوله متغزّلا بولّادة بنت المستكفي:

إنـي ذكـرتُـكِ (بالزّهـراءِ) مُشتاقا
والأفقُ طلقٌ ومرأى الأرضِ قد راقا
وللنّسيـمِ اعتـلالٌ فـي أصائلِـهِ
كـأنّـه رَقَّ لـي، فـاعتـلّ إشـفاقا

وإذا كانت قرطبة تفخرُ بالإمام القرطبيّ، الألمعيّ الذّكيّ، الذي خطّ بأنامل العلم والإيمان مُصنّفَه الفريد: الجامع لأحكام القرآن، وتزهو بالمحدّث الحافظ ابن عبد البَرّ صاحب التّمهيد والاستذكار، وابن حزم الظّاهريّ الفيلسوف الفقيه الأديب الأريب، صاحب التّآليف الجليلة والتّصانيف العجيبة،

وإذا كانت غرناطةُ المدينةُ السّاحرةُ الآسرةُ، العاطرةُ النّاضرةُ بتلالها وسُهولها، وعُشبها واخضرارها، ومفاتنها ومحاسنها قد سَبَت الشّعراء والأدباء، وعزف أحدُهم على قيثارة الوصف مُتغنّيًا بما يسرُّ النّفسَ ويُطربُ الوجدان:

أنهارُها فضّـةٌ، والمسكُ تربتُها
والخزُّ روضتُها والدُّرُ حصباءُ
وللهواءِ بها لُطْفٌ يَرقُّ به
مَنْ لا يَرِقُّ ويبدو منهُ أهواءُ

وإذا افتخرت غرناطة بأبي حيّان الغرناطي صاحب البحر المحيط والنّهر المادّ، والأديب الجهبذ المُترسّل لسانِ الدّين بن الخطيب عميدِ أدبها ولسانِ شعرها ونثرها في ريحانة الكُتّاب....

قلت: إذا كان التّاريخ يحفظُ كلّ هذا وذاك ومثلَه معه في سجلاته الذّهبيّة وقراطيسه الفضيّة، وقد خلّد هؤلاء وأمثالَهم ممّن شاركوا في صُنع أحداثه، وتشييد أمجاده، فإنّ التّاريخ

المعاصرَ قد وقف مُتْعَبًا كليلا، وجثا على رُكبتيه نَصِبًا مَحْسورا، وكلّما نظر وأبصر، وفكّر وقدّر، فإنّ بصرَهُ ينقلبُ إليه حسيرًا، وينكُصُ على عَقِبَيْه مغلوبا مَدْحورا، لما رآه ويأنَسُهُ في شارقة العلم والعِرفان، عاصمةِ الكِتاب، ومأوى المثقّفين، ومَلاذِ الأدباء، ومَوْئِلِ الشّعراء، ومَحجّةِ الأبيناء البلغاء، ومقصدِ المُعجميّين، وملجأ أهل الفنون والأكاديميّين، البارعين في شتّى الفنون والعلوم.

وليس هذا الكلامُ ضربًا من الخيال، ولا نسْجًا من الأوهام، ولا ضِغثًا من الأحلام، وإنّما هو الواقعُ الصّادق، والحقُّ النّاطق، ومن يعيشُ في الشّارقة وأكنافها ليس بحاجة إلى أن أروي له قصّتها، فليس الوصفُ كالمُعاينة، ولا النّعتُ كالمُشاهدة.

وعلى الرّغم من بضاعة التّعبير المُزجاة، فسأجتهدُ في ذكر مفاتن مدينة المُدن، وحاضرة الحواضر، وإذا كَلَّ حُسامُ بياني، فحَسْبي أنّي اجتهدت، ولستُ أوّلَ صريع يفتِنُهُ الجمال، ويأخذُ بلُبِّه الرُّواءُ والبهاءُ، وتستهويه المفاتنُ، وتقتُلُهُ المحاسن.

يكفي الشّارقةَ فخرًا أنّها عاصمةُ الكتاب دون مُنازع، وحاضرةُ الثّقافة دونَ مُقارع. لقبٌ مُستَحَقٌّ قطفته عن جدارة واستحقاق. أربعون ربيعا وهي تحفلُ بالكتاب، يأوي إليها جيوشُ المُثقّفين، ويأرِزُ إليها الأدب، ويحتمي بحماها العلم، وتستظلُّ بظلالها الوارفة الفنون. مَجدٌ مُؤثّلٌ ورِثَتْهُ كابرًا عن كابر، وحينَ تُعَدُّ معارضُ الكتب العالميّة فالشّارقةُ بَدْرُ سمائها، وذُروةُ سنامها، وحينَ تُحصى المؤسّسات التي تُعنى بالكتاب في العالم العربيّ والإسلاميّ، فإنّ مراكز الإشعاع العلميّ، ومؤسّسات الكتاب، ودور النّشر، ودائرة الثّقافة، وهيئة الكتاب في الشارقة تبْزُّ وتغلبُ، وتتفوّقُ وتُعجِبُ وتُطرِبُ.

وإذا بحثت أيّها الشّاعر المُبدع عن بيتٍ تأوي إليه، تبوحُ فيه بأسرار الشّعر، وتُفرِغُ مكنونات الأدب، وتُفضي بلواعج الإبداع، فإنّ بيتك الطّبيعيّ موجودٌ في الشّارقة التي تقيم للشّعر بيوتا ودُورا، بل إنّ حاكمَها الأديبَ الأريبَ الكاتبَ المؤرّخَ الشّيخَ المُثقّفَ الهُمام الدكتور سلطان بن محمد القاسمي أبى إلاّ أن يبنيَ للشّعر بيوتا في العواصم العربيّة وبعض البلدان الأفريقيّة.

أرجو يا قارئي الكريم أن تزورَ بيتَ الشّعر في السّودان، فإنّك ستسمع أشعارا تسرُّ الخاطرَ وتُسعِدُ الوجدان. أرجو أن

تزورَ بيت الشّعر في مرّاكش والقيروان، وستعزفُ قيثاراتُ الشّعر لك أعذبَ الألحان، ووَلِّ وَجهك شطرَ شنقيط، فإنّك واجدٌ من الشّعر وفنون القول ما يشفي العليل ويروي الغليل، وقِسْ على ذلك بيوتَ الشّعر في أفريقيا السّمراء والأردن، ومصر وغيرها، فإنّ لسانَ حالك سيُقِرُّ لشارقة العرفان بالسّبق، وسينطقُ بالصّدق داعيا لحاكمها الهُمام الذي جعل منها دمشق الأمويّين في عهدها المجيد، وبغداد العبّاسيّين في عصرها الذّهبيّ.

أمّا الغيداءُ المُضريّة، والهَيْفاءُ التّميميّة، والحَسْناءُ الإياديّة فشأنُها في الشّارقة أيُّ شأن! هي في أحسن حال، وأهْنَإ مقام. أسّسَ لها حاكمُها الميمونُ المفتونُ بجمالها جمعيّاتٍ لحمايتها، وخصّص مدارس لتعليمها، وشيّدَ معاهدَ لتدريسها، وأنشأ مجمع اللغة العربيّة بالشارقة ليكون همزة وصلٍ بين المجامع اللغويّة في الأقطار العربيّة والمراكز اللغويّة الدّوليّة لقضاء مآربها، وسدّ حاجاتها، والتّمكين لها، وتذليل العوائق وتحييد المزالق التي تقفُ أمام نشرها وتعميم الحديث بها.

العربيّة في الشارقة في عرينها، وهلْ يُضامُ شِبلٌ يحيا في كنف والده الضّرغام؟ وهل تُظلمُ كريمةٌ في بيت أبويها؟ وهل تُمَسُّ حُرّةٌ عقيلةٌ بسُوءٍ وهي في حِمى زوجٍ أبيّ شهم هُمام؟؟

مجمع اللغة العربيّة بالشارقة صغيرُ العُمر، لكنّه وُلِدَ كبيرا. هو اليوم في زهرة الحياة، ستّة أعوام قضاها في جمع الشّمل العربيّ، ورأب الصّدع، ورَتْق الفَتْق، والحمدُ لله أوّلا وآخرا على إنعامه وتوفيقه، ثمّ إنّ الشّكرَ والثّناءَ موصولٌ إلى مؤسّسه وبانيه رجلِ العربيّة وحامل لوائها سلطان القاسميّ الذي لا يألو جُهدا ولا يدّخرُ وُسْعا في دعم كلّ مشروع ينهضُ بالعربيّة ويُمكّنُ لها، وما مجلسُ اللّسان في موريتانيا عن العالمين ببعيد، ومشاريعُ مجمع الخرطوم على أياديه شاهدة، وجائزة الدّراسات اللغويّة والمعجميّة بفضله وإغداقه على الفائزين متحدّثة ناطقة.

ولو أنّنا وقفنا فقط عند مشروع المشاريع اللغويّة، وذُروة سنامها: المعجم التّاريخي للغة العربيّة، لكفى الشارقة فخرا، وكفى حاكمها أجرا عند الله تعالى لاضطلاعه بهذا المشروع الذي تعجز عنه سوابِقُ الهممُ، وتنوءُ بحمله شُمُّ الجبال والقِمم، وقد رأى العالمون منه في أعوام قلائل سبعة عشر مجلّدا لخمسة الأحرف الأولى من حروف العربيّة، والتّحرير المعجميّ متواصل، والجهودُ تترى، وعند الصّبح تحمدُ الأمّة العربيّة السُّرى، وتجنى ثمرات أعظم مشروع يخدم لغتها، ويحفظ تاريخها.

وإذا جئنا إلى لُبّ لُبَابِ الإسلام، وهو القرآنُ الكريمُ فَحَدّثْ ولا حَرَج، وأفصِحْ أيّها اللّسانُ ولا تتلَجْلَجْ، فإنّ العناية به في شارقة العرفان تُؤجّجُ نارَ الإيمان، وتسحرُ المُهَج.

وانظر – يا رعاك الله – إلى مراكز تحفيظ القرآن المشيّدة بالإيمان في كلّ مكان، واملأ ناظريك بالمساجد الشارقيّة التي لا يخلو منها حيّ ولا ضاحية، واجتهدْ أن تصل بنظرك وتأمّلْ واستمتِعْ بجوهرة الدّور، ودُرّة القصور: مجمع القرآن الكريم في ضاحية مويلح الذي هو آيةٌ في الجمال ونادرةُ الزّمان في الفنّ والعمران.

يضمّ بين أفيائه سبعة متاحف للقرآن الكريم، ما فكّر فيها قبلُ إنسٌ ولا جانّ! إنّها مِنّةُ الرّحمن على الشّيخ سُلطان، أثابه الله المنعمُ المنّان أعلى الجنان، وما ذلك على الله بعزيز، وهذا دعاؤنا ولا نملك من الله شيئا.

إنّ الحديث عن الشارقة حديثٌ ذو شجون يُثيرُ الأشجان، مُتَشعّبٌ يعجزُ عنه البيان، ولو أنّ متكلّما فصيحا مِصْقعًا ذَرِبَ اللّسان، بسط لنفسه العَنان، لأبدع فيها قصائد كالدّرّ والجُمان، واللّؤلؤ والمَرجان، ولوْ أنّ مُغنّيّا موسيقيّا وصفها بالإيقاع لأبدع فيها أروع الألحان التي تُطربُ الوِجدان، ولوْ أنّ رسّاما ماهرًا خِرّيتا رامَ أن يرسم لها صورةً لجادت أناملهُ بأبدع مشهدٍ يرسمهُ فنّان، وتعكسه عدساتُ التّصوير المتطوّرة في هذا الزّمان.

آهٍ، أيّتها الفاتنة السّاحرة، آهٍ أيّتها البهيّةُ القاهرة! إذا تباهت المُدنُ بناطحات السّحاب، فأنت تتباهَيْنَ بمؤسّسات الكتاب! وإذا تفاخرت المُدن بعظيم المباني وشاهق العمران، فأنت تفخرين – وحُقّ لك – ببناء الإنسان!

وإذا تسابق المتسابقون لجمع المال وحشد رجال الأعمال من كلّ حدب وصوب، وتوفير التّيسيرات المادّيّة، والملذّات والتّفنّن في الشّهوات، فأنتِ تُسابقين الزّمن في صناعة الضّمير، وبناء القِيَم، وحماية الأخلاق، وتغذية العقول بشتّى العلوم والفنون، وتعملين في صمتٍ على غرس سلاح العلم في نفس كلّ إنسان، فأنت لا تُحسنين غير الحوار، وتوصيل رسالة السّلام، بأعذب بيان وأسطع بُرهان؛ فطوبى لك في الأوّلين، والحُسنى لك في الآخرين، وشكرا لك فقد أعدت إلى الأذهان والعَيان صورةً حيّة للفردوس المفقود.

وكتبه الفقير إلى رضوان ربّه
امحمد صافي المستغانمي

الشارقة ١٦ / ٦/ ٢٠٢٢م
الموافق لـ ١٦ من ذي القعدة ١٤٤٣ هـ

واقِعُ اللّغة العربيّة في القارّة السّمراء

ندوة اللّغة العربيّة في القارة الإفريقيّة

أكد صاحب السّمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي عضو المجلس الأعلى حاكم الشارقة، أن قارة إفريقيا تحتوي على إرث ثقافيّ وتراثي كبير في شقّيه المادّي والمعنوي، شاملاً اللغة العربية والثقافة الإسلامية والكثير من المعارف والفنون والوثائق والمخطوطات التّاريخيّة.

جاء ذلك خلال مداخلة سموّه في ندوة "اللغة العربية في القارّة الإفريقية" التي أقيمت في دارة الدكتور سلطان القاسمي صباح اليوم الخميس بمشاركة نخبة من علماء اللغة العربيّة في عددٍ من الدول الإفريقية.

وأشار سموّه إلى جهود الشّارقة في العمل الثقافيّ والتّعاون الإفريقي الذي بدأ منذ زمن طويل، وتأسّست خلالها قاعة إفريقيا في الشارقة التي تُعَدُّ أقدم المنصّات الثّقافية، وأقيمت فيها الكثير من الفعاليات والأنشطة الثقافية في الإمارة، لافتاً سموُّه إلى دور المؤسسات الثقافيّة والعلميّة في تعزيز التعاون مع المؤسسات البحثية والثقافية المعنية في التاريخ والثقافة الإفريقية لتوثيق الإرث الثقافي المشترك.

وأكد سموّه على ضرورة التعاون مع المؤسسات المعنيّة بالشأن الثقافي والمراكز اللّغويّة، ودعم الأدباء والمثقفين وإحياء الأنشطة الثقافية التي تعزز من اللغة العربية وتسهم في الحفاظ عليها واستمرارها وفق أسسها واستخداماتها الصحيحة، موجّهاً سموه بدعم الكُتّاب والأدباء الأفارقة من خلال إحياء الأمسيات والأنشطة الثقافية وطباعة وترجمة إصداراتهم وكتبهم، وإنشاء رابطة اللغويين في إفريقيا التي تُعنى بدراسة قضايا اللغة العربيّة وسُبُل التّمكين للسان العربيّ في القارّة السّمراء.

وفي شأن التّعليم والتّربيّة، لفت سموّه إلى ضرورة تأهيل الأفراد بالعلم الصّحيح والنافع، ويكون ذلك التأهيل والتّدريب باللغة العربية السليمة مشيراً إلى التعاون الكبير مع العديد من الدول الإفريقية في استقطاب الدارسين للجامعة القاسمية وتخريج كثير منهم ليصبحوا مؤهلين بالعلا والمهارات اللازمة لخدمة بلدانهم والحفاظ على تاريخها وثقافتها.

وثمّن المشاركون في الندوة الدعم الكبير لصاحب السّمو الشّيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي وحرصه على دعم المجالات الثقافية المتنوّعة في كافة البلدان، ودعمه لإنشاء المعاهد والمراكز اللغوية والثقافية التي من شأنها تعزيز العمل الثقافي والحفاظ على مختلف أنواع الثقافة والتراث الموجودة في إفريقيا.

كما قدّم العلماء اللّغويّون المشاركون الذين جاءوا من سبع دول إفريقيّة هي ساحل العاج ونيجيريا وكينيا كوناكري والسّنغال وجنوب السّودان والتشاد ومالي، نبذة حول تاريخ اللغة العربية وواقعها في الدول الإفريقية، وأهميّتها كلغة للتخاطب والتّواصل، ومدى انتشارها وأبرز التّحديات التي تواجه انتشارها، والمقترحات التي من شأنها أن تُعزّز حضورها وحسن استخدامها في لغة التواصل اليومي، ولغة الكتابة والمراسلات في الدول التي تعتمدها لغة ثانية.

تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الندوة، كانت بدعوة من مجمع اللغة العربية بالشارقة الذي يرأسه صاحب السمو حاكم الشارقة، وأمينه العام الدكتور امحمد صافي المستغانمي.

وحضر ها كلّ من أصحاب السعادة الدكتور عبد الله محمد العويس رئيس دائرة الثقافة، وجمال سالم الطريفي رئيس الجامعة القاسمية، ومحمد حسن خلف مدير عام هيئة الشارقة للإذاعة والتلفزيون، والدكتور عيسى صالح الحمادي مدير المركز التربوي للغة العربية لدول الخليج بالشارقة.

> **قارة إفريقيا تحتوي على إرث ثقافيّ وتراثي كبير في شقّيه الماديّ والمعنوي، شاملاً اللغة العربية والثقافة الإسلامية والكثير من المعارف والفنون والوثائق والمخطوطات التّاريخيّة.**

الرّوائيّة أحلام مستغانمي

في ربوع مجمع اللّغة العربيّة بالشّارقة

استقبل مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة الكاتبة الرّوائيّة الجزائريّة أحلام مستغانمي، وتجولّت خلال زيارتها في أروقة المجمع وتعرّفت على مكتبته التي أثنت عليها لما تزخر به من أنواع المصادر والمراجع قديمها وحديثها، وقد رافقها خلال جولتها سعادة الدّكتور امحمّد صافي المستغانمي أمين عام مجمع اللغة العربيّة بالشّارقة وعدد من موظفي المجمع، كما اطّلعت أحلام مستغانمي على المشاريع العلميّة اللغويّة التي يتبنّاها المجمع بإشراف ورعاية كريمة من صاحب السّموّ الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسميّ حاكم الشّارقة -يحفظه الله-، على رأسها مشروع المعجم التّاريخيّ الذي يجمع بين صفحاته تاريخ اللغة العربيّة ورحلة كلماتها عبر العصور، وهو مشروع الأمّة العربيّة الأكبر والحلم الذي طال انتظاره.

وفي حوار ودّي دار بين الكاتبة أحلام مستغانمي وسعادة الدّكتور امحمّد صافي وموظفي المجمع، أبدت الرّوائيّة إعجابها بمشروع المعجم التاريخي وبما يبذله صاحب السّموّ الشّيخ الدّكتور سلطان بن محمّد القاسميّ حاكم الشّارقة -يحفظه الله- من جهود متتابعة مثمرة في سبيل دعم العلم والثّقافة عامّة وترسيخ اللغة العربيّة خاصّة، جاعلًا من إمارة الشارقة منارة ثقافيّة ممتدّة النّور، وقد عبّرت الكاتبة عن السّكينة التي يشعر بها كل من يزور مدينة الشّارقة، إذ إنّها تحمل عبق العروبة في أرجائها وعظمة الثّقافة العربيّة في معالمها الشّامخة، وقد أهدت الرّوائيّة عددا من كتبها إلى صاحب السّمو حاكم الشارقة – حفظه الل تعالى- ، وجاء في كلمتها في الإهداء متحدّثة عن صاحب السّموّ حفظه الله تعالى: "منارة العروبة وآخر قلاعها الدّكتور سلطان بن محمّد بن صقر القاسميّ حاكم الشّارقة الشّاهقة علمًا وتواضعًا".

وفي حديثها عن الشارقة عاصمة الثّقافة والكتاب، ورافعة راية العلم، وبانية الإنسان، قالت الرّوائيّة: "لي قرابةٌ بالشّارقة...بمآذنها...وطُمأنينتها...بشُموخ جامعاتها وأصالة أبنائها...بعُنفوان أحلامها العربيّة، نغبطُها لأنّك حكمتها بحكمتك وقلمك".

كما أهدت الكاتبة مجمعَ اللّغة العربيّة بالشّارقة نُسَخًا من أعمالها، هذا وقد جاءت زيارتها في إطار سعي المجمع لاستضافة الشّخصيّات اللُّغوية والأدبيّة المؤثرة دعمًا للثقافة وخدمةً للّغة العربيّة وآدابها.

الروائية أحلام مستعانمي عن الشارقة وحاكمها:

لي قرابةٌ بالشّارقة... بمآذنها...وطُمأنينتها... بشُموخ جامعاتها وأصالة أبنائها...بعُنفوان أحلامها العربيّة، نغبطُها لأنّك حكمتها بحكمتك وقلمك".

"منارة العروبة وآخر قلاعها الدّكتور سلطان بن محمّد بن صقر القاسميّ حاكم الشّارقة الشّاهقة علمًا وتواضعًا"

المَقامَةُ التَّنالِيَّةُ

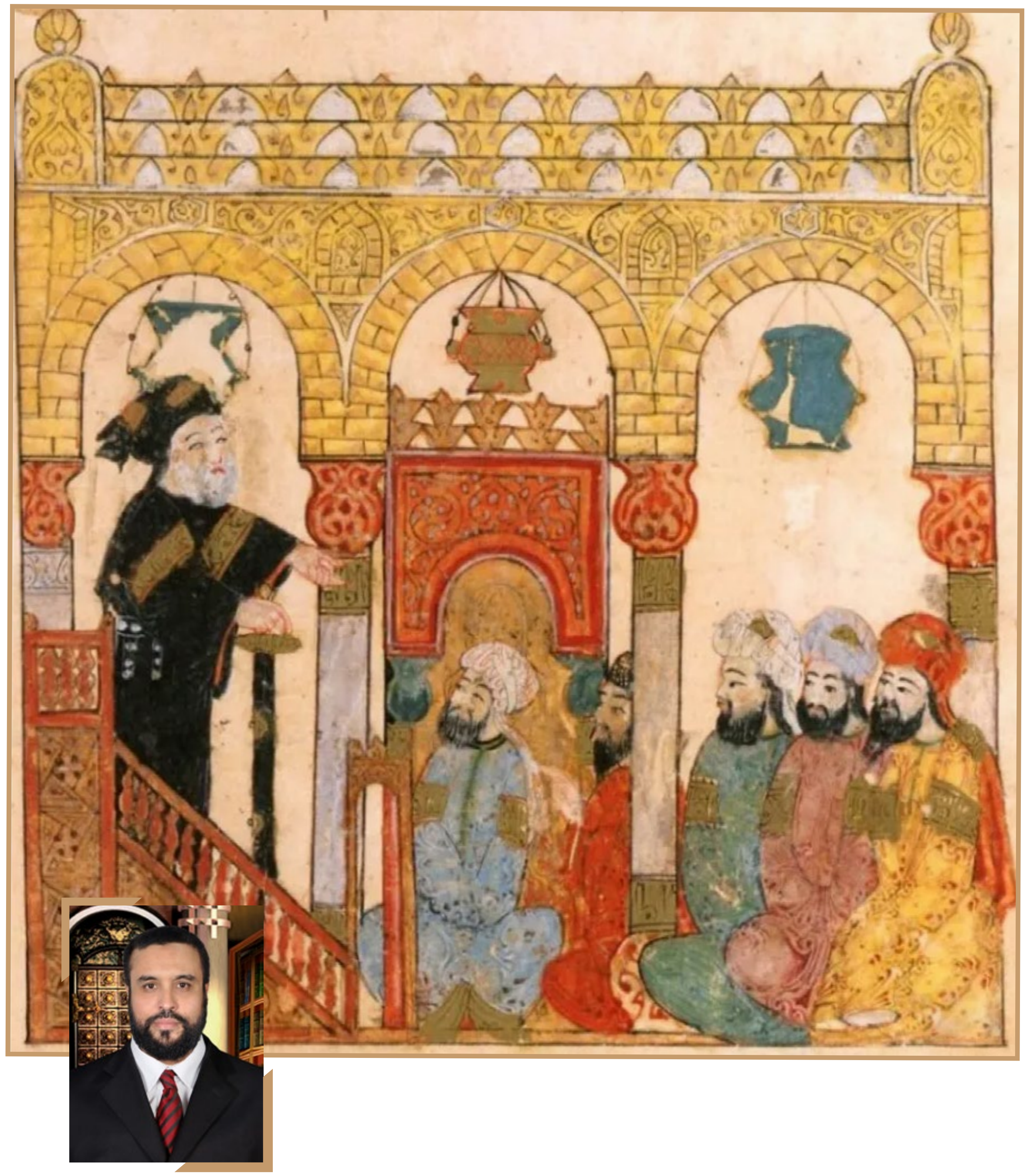

هشام الدقاق

حدَّثَنَا وَضَّاحُ بْنُ سَاكِنِ البِطَاحِ قال : لَحِقْتُ بِثُلَّةٍ من لِداتي، بعد أن نَزَحْتُ ما في دواتي؛ فخرجنا نَهْتَصِرُ أفانينَ البيان، من أخبار شِعْبِ بَوَّان، ومغانيه الفِيحِ الحِسان، ونذكر التَّوبادَ والأُبُلَّة ، وحَدائقَ بابلَ والمِسَلَّة. فبينما نحنُ نَمشِي على هَوْنِنا ، إذْ سَمِعنا أَنَاسِيَّ مِنْ حَولنا، وهُم يَلوكُون عِباراتٍ مُبعثرةٍ، ليستْ مَعرفةً ولا نَكِرة، وفيها زايَلَ المًبتدأ خبَرَه؛ فرُغنا إلى مَصدرِها سِراعًا، وقد طارَتِ النّفسُ شَعَاعًا ، فإذا بأصحَابِها مِنْ بَنِي قَومِنا، وذَوِي رَحِمنا، قد أَزْرَوْا بالمُضَرِيَّةِ الغَيْداء، واستباحُوا حِمَى العَربِ العَرْبَاء، وطفِقُوا لَحْنًا في الأفعالِ والأسماءِ؛ فصرَخْنا في وجُوهِ القومِ، وعاجَلناهُم بالزّجرِ واللَّومِ، وقد تَمثّلنا بقولِ الأحوصِ، وما حِدْنا عن النَصِّ :

بني تميمٍ ألا فانْهَوْا سفيهكُمُ

إنَّ السّفيهَ إذا لَـمْ يُنْـهَ مَأْمُـورُ

إنّكم قد حَرَّقْتُمْ علينا الأُرَّم، وجرَّعتُمُونا كؤوسَ الألم . فلا طارَ لكُم طَير، ولا سيق إليكم مَيْر،﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ﴾ ؛ فانتظِرُوا قارعَةً تَحُلُّ بدارِكُم، وتَغْتَامُ صغارَكُم قبلَ كِبارَكم. فَسُمِعَتْ لِأَوْشَابِهِمْ جَلَبَة، وكانتْ لنا في الحَلْبَة الغَلَبَة. وفي مَعْمَعَانِ هذا المَشهدِ، وغليَانِ يَومِهِ الأشدّ آنَسْنَا من جانِبِ الطّريقِ شيخًا مُعَمَّمَا، وَرَمَقنا امْرَأً مُلَثَّمًا، قد زُمِّلَ في بِجَادِهِ ولم يفصحْ عن مُرادِهِ وهو يُنادي: يا قومِ هَلُمُّوا إليَّ أجمَعين، أَكْتَعِين أبْصَعِين أَبْتَعِين، فإنّي جُهينةُ الأخبارِ، وخَزينةُ الأفكارِ، وسَفينةُ الإبحارِ، ومَنْ سلَكَ الجَدَدَ أَمِنَ العِثَارَ. فتَنَحنَح قبلَ البدءِ، وكأنَّ السماءَ أرعَدَت قبل النَّوْءِ، وأنشأ يَقولُ:

يَارَبَّةَ الحُسْنِ البَدِيعِ الأَوْحَدِ
مَاذا صَنَعْتِ بِعَاشِقٍ مُتَوَدِّدِ؟
جَافَيْتِ عَنْهُ النَّوْمَ حتَّى قَدْ بَدَا
رَهْنَ السُّهَادِ يَعَافُ طِيبَ المَرْقَدِ
تَيَّمْتِهِ حُبًّا فَأَمْسَى ذَاكِرًا
زمَنَ التَّجلِّي في تَمَامِ المَوْعِدِ
لَكِ في فُؤادي مَنْزِلٌ سَامي الذُّرَى
يَدْنُو مِنَ الشِّعْرَى وَنَجْمِ الفَرْقَدِ

فقلنا: هذا وَايْمُ اللهِ عاشِق، في بَحرِ الصّبابةِ غارِق. والنّاسُ تَرثي لحالِه، وتذهلُ من مقالِه. ثمّ واصلَ نثر دُرَرِهِ وَغُرَرِه :

حُيِّيتِ بِنْتَ الضَّادِ لَمْ أَقْصِدْ سِوا
كِ مِنَ المِلاحِ النَّاعِمَاتِ الخُرَّدِ
أَلْفَاظُكِ الغُرُّ الحِسَانُ تَحَدَّرَتْ
مِنْ بَحْرِكِ الطَّامِي الخِضَمِّ المُزْبِدِ
قَدْ أَدْهَشَتْ أَهْلَ النهى فَتَرَنَّمُوا
طَرَبًا لِسِحْرِ بَيَانِكِ المُتَرَدِّدِ
صَوْتُ الفَصَاحَةِ وَقْعُهُ في مَسْمَعي
يُزْرِي بِسَاجِعَةِ الرُّبَى وَالفَدْفَدِ
وَلَقَدْ وَسِعْتِ كِتَابَ رَبِّي إِنَّهُ
شَرَفٌ عَظِيمٌ نِلْتِهِ فَلْتَسْعَدِي
آيَاتُهُ فِيهَا كَلامٌ مُعْجِزٌ
لِأُولي اللِّسَانِ اليَعْرُبِيِّ الأَمْجَدِ
سَمِعُوا بَلاغَتَهُ فَخَرُّوا سُجَّدًا
لِحَلاوَةٍ وَطَلاوَةٍ فِي المَشْهَدِ
يَا حَبَّذَا سِرُّ النُّبُوغِ وَحَبَّذَا
لُغَةُ النَّبِيِّ الهَاشِمِيِّ مُحَمَّدِ

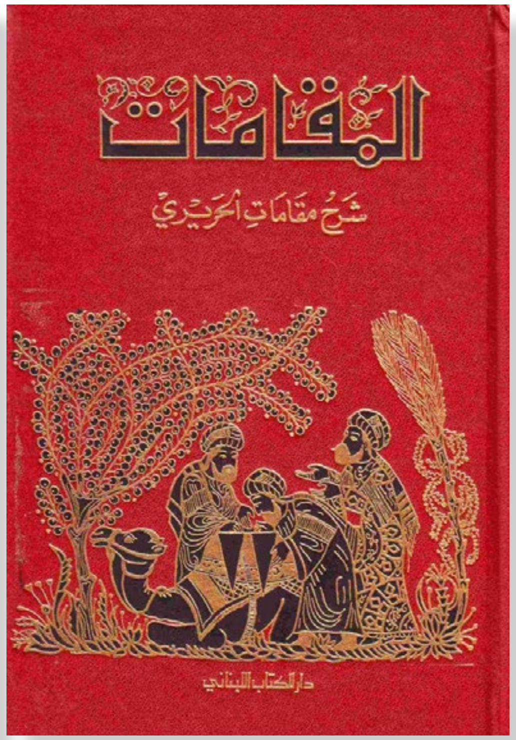

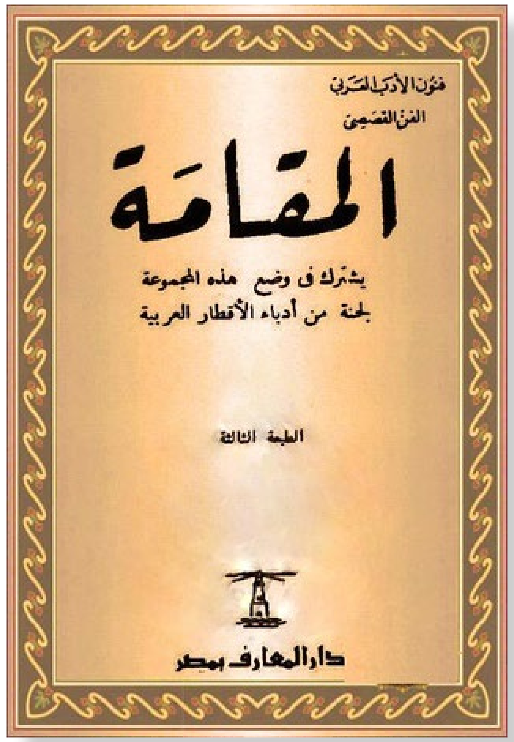

ثمَّ عَطّرَ الكلامِ ، بالصّلاةِ والسّلامِ، على خَيرِ الأنامِ، وسَكَتَ مَلِيًّا ، وخَلَصَ القومُ نَجِيًّا؛ فعَلِمنا أنّه فارسُ العَربيّةِ المِغوارِ، وصَمْصَامَتُهَا الهَدَّار، وقد غَصَّت بالملإ ساحتُه ، وضاقَت بهم باحتُه ، وكأنَّ بشارًا يَعنيه، في بعضِ قوافيه:

يزدحمُ الناسُ على بابِهِ
والمَنهلُ العذبُ كثيرُ الزِّحامْ

ثم أردَفَ وشنَّف ، وما تلعثَم أو تخَلَّف :

بِنْتَ المَعَارِفِ وَالمعَاجِمِ أنْتِ زا
دُ السَّالِكِينَ وَأَنْتِ غَايَةُ مَقْصدِي
أَهْوَاكِ صَاحِبَةَ الجَلالَةِ وَالسَّنَا
مَا عَاوَدَ الصَّبَّ ادِّكَارُ المَعْهَدِ
قَدْ صِرْتِ أَنْتِ لِسَانَ سُكَّانِ الجِنَا
نِ وَمَا لَهُمْ مِنْ بُشْرَيَاتٍ فِي غَدِ
إِنّي أَقُولُ لِشَانِئِيكِ أَلا انْتَهُوا
لا دَرَّ دَرُّ الجَاحِدِينَ الحُسَّدِ
يا خَيْرَ مُدَّخَرٍ وَأَنْفَسَ قُنْيَةٍ
فِي العَالَمِينَ وَآيَةً لِلْمُهْتَدِي
وَمَلاذَ كُتَّابٍ وَخِدْنَ يَرَاعَةٍ
وَمَثَابَةً لِلنَّاسِكِ المُتَعَبِّدِ
لا مَجْدَ إِلَّا فِي الرُّجُوعِ إِلَيْكِ يا
عَرَبِيَّتي الفُصْحَى التي خَطَّتْ يَدِي

ولمّا أوقَفَ الشَّيخُ إنشادَه، أشَدْنا به أيَّ إشادَة، وشَهِدنا ببراعتِهِ خيرَ شهادَة . وكلٌّ يتساءَل: منْ هذا المِصْقَع الألسَنُ، والشاعِرُ الأَلْقَن، والمِدْرَهُ الأبْيَن ؟ فإنّا قدْ رَأينا عَجبًا عُجابًا، وما وَجَدنا للسُؤالِ جَوابًا. ولما خَفَتَ الصّوتُ، وخيَّم الصّمتُ؛ استرسَلَ فيما كان عليه، وأعناقُنا مُشرئِبّةٌ إليه، وقال:

هَبَّتْ لِنُصْرَتِكِ المجَامِعُ وَانْبَرَتْ
لِمَزَالِقِ التَّغْرِيبِ وَاللَّحْنِ الرَّدِي
الضَّادُ مُلْهِمَتِي التي أَشْدُو بِهَا
في نَشْوَةٍ شَدْوَ الغَرِيضِ وَمَعْبَدِ
وَهْيَ الجَلِيسَةُ إِنْ جَفَاكَ مُصَاحِبٌ
وَهْيَ الأَنِيسَةُ فِي الزَّمَانِ الأَنْكَدِ
تَسْرِي حُروفُ ضِيائِها فِي مُهْجَتي
فَتَسِيلُ شَهْدًا مِنْ جَوَانِبِ مِذْوَدِي
لا غَرْوَ إِنْ كَانَتْ لِرُوحِيَ بَلْسَمًا
وَلِغُلَّةِ الظَّمْآنِ أَعْذَبَ مَوْرِدِ
إِنَّا جَمِيعًا يَابْنَةَ العُرْبِ الأُلَى
نَحْمِي الحِمَى وَنَرُدُّ كَيْدَ المُعْتَدِي
سَتَظَلُّ ذِكْرَاكِ الجَمِيلَةُ جَنَّةً
تُسْقَى بِمَاءِ العِشْقِ وَالشَّوْقِ النَّدِي

وغِبَّ فراغه من قَصيدِه ، وانتهائِه من نشيدِه ؛ قلنا له: نُنَاشدك اللهَ إلا أخبرتَنَا مَنْ تكونَ أيّها الأسَدُ الرابِضُ؟ و مَنْ أنتَ أيّها الرائدُ الرّائضُ، لِعويصاتِ الكَلِمِ الغوامضِ؟ فاستحضَرَ قولَ الرِّياحِي، وأسمع من في النّواحِي :

أنا ابْنُ جَلا وَطَلَّاعِ الثّنَايا
متى أضعِ العِمامةَ تعرفُوني

ثم حَسَرَ عن وجهِهِ ورأسِه، وكشف عن خبيئةِ نفسِهِ، فإذا هو صاحِبُنا الخِرِّيتُ السَّمَيْدَعُ، المُقَنَّعُ بْنُ أَرْوَع ، غيثُ العَربيّة الهامِعُ ، وبَدرُ تَمِّهَا السّاطعُ، قَيْدُومُ مجلِسنا وحَيْزُومُه ؛ توارَى عنا بالأمسِ، حتّى ظَنَنّاه في الرَّمسِ وقلنا له: ما هذه الرّيحُ الطيّبةُ الّتِي هَبتْ علينَا، و حَمَلَتْكَ إلينَا ؟ فإنّا لمْ نَذُق بعدك غَمضًا ، وقد جُبْنا الأرض طولًا وعرضًا فقال: لقد أخرجَنِي إليكم أمرٌ ذُو بَال، يندحِرُ لسماعِهِ البَلْبَالُ. فقلنا له: وما ذاكَ يا جُدَيْلَهَا المُحَكَّك، وابن بَجْدَتِهَا المُحَنَّك، وعُذَيْقَهَا المُرَجَّب، ونَطَاسِيَّها المُجَرّب؟ فانتفضَ قائلًا، وانْتَهَضَ صَائِلًا جائلًا:

معاشِرَ مَنْ حَضَر، من البَدْوِ والحَضَر. أقِفُ اليومَ أمامكُم، ولستُ إمامَكم. عندي لكم نَبَأ يَقين، وقولٌ مُبين رَصين. فلقد عَلِمتم أنّ عَرَبيّتنا أفضلُ اللّغاتِ وأسماهَا ، وأكملُ اللهجاتِ وأغناهَا.

رضعتُ لِبانَها دهرًا طويلاً
ولم أقضِ اللُّبانةَ و الفِطاما
هيَ العربيةُ الفصحى و إنِّي
سعدتُ بحسنِ صحبتِها غُلاما
خزائنُها جواهرُ ليسَ تَفْنَى
من الألفاظِ تنتظمُ الكَلاما
ثراءُ في اشتقاقٍ معجميٍّ
وبين المفرداتِ تَرى انْسِجاما
معارفُ محدثاتٌ تحتويها
فلا تشكو افتقارًا وانِهزاما
وللتعريبِ شأنٌ أيُّ شأنٍ
إذا ما أَحْكَمَ الغُيُرُ الزِّماما
غدتْ ذُلُلًا لها غُرَرُ المعاني
ولم تشهدْ مبانيها انْثِلاما
وتحتضنُ العلومَ بلا عناءٍ
و ليسَ يَضِيرُ إن لَقِيَتْ مَلاما
إذا الأثقالُ ناءَ بها رجالٌ
فإنَّ الضَّادَ تَحْتَمِلُ الجِسَامَا

إن محبوبَتي كما تعلمُون، قد رَغِبَ عنها البَنُون، وهتَكُوا خِدرَها المَصُون، وضَربُوا عنْ ذِكرها صَفْحًا، وطَوَوْا عن إعرابِها كشحًا، وكأنّي بها وهي تقولُ، وتَئنُّ كالمَعلولِ:

أضاعوني وَأيَّ فتىً أضاعُوا

ليومِ كريهةٍ وسِدادِ ثَغْرِ

وتُرسلُ عَبرةً حَرَّى ، وزَفرةً تلوَ أخرَى وتقول :

إنَّ بَنِيَّ ضَرَّجُونِي بالدَّمِ

شِنْشِنَةٌ أَعْرِفُهَا مِنْ أَخْزَمِ

لقد كانَ أوائلُنا أهلَ فصاحَةٍ وظَرْف، فخلَفَ من بعدهم خَلْف، نبذوا النّحوَ والصَّرْف، وأصبحَتِ العَربيّةُ عندهم أهونَ من قُعَيْس، وهمْ عليها أشأمُ منْ طُوَيْس. وما منهُم إلا ذُو عقلٍ طائِش، أومُمسكٍ بسهمٍ رائش، وعلى أهلها جَنَتْ بَرَاقِش. وأقول للعَقَقة الجافين : ﴿إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ﴾، ﴿ وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ وأنتم أيّها الغطارِفَةُ الجَحاجِحُ، ويا أولي الألبابِ الرّواجِحُ ، دونكم التَّنَال، وما أدراك ما التَّنَال؟ به تُعطَى الرّغائبُ وتُنالُ، وتُفتحُ الأبوابُ والأقفالُ، ويظفرُ بالمُنَى والآمالِ. فهو اختبارٌ لُغويّ تربويّ مِعياريّ لقياسِ الكِفايةِ اللّغويّةِ ، لمهاراتِ العَربيّةِ. تشبهُ شهادتُه توفلَ الإنجليز، والدِّلْفَ لدى أهل بَاريز. يَتَحرَّى تعريبَ ما تراه العَينانِ، وتلمسُه اليدان، ويلفظُهُ اللسانُ. يعيدُ إلى العَربيّةِ النّاضرةِ ، عصورها الزّاهية الزّاهرة ، وأمجادها الغابرة الباهرة ؛ وهو مُوجه إلى النّاطقين بها خاصّة، وإلى غيرهم كافّة. فمَنْ يَتوقُ إلى التّوظيفِ، فحبّذا التكليفُ، وبَخٍ بَخٍ بهذا التّشريفِ، ومن كان للعربيّةِ مُدرّسًا؛ فَلْيَعْبُرِ النَّهْر، ومن خَطَبَ الحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهَا المَهْر. إنّه يشملُ جميعَ النّاسِ، من الطبقاتِ والأجناسِ، ومنهُم: الأئمّة والوُعّاظ والمُفتون، والأطباءُ والقُضاة والمُحامون، والمُذيعون والشُّرَطُ والمُهندسون ، والناشئةُ الصغارُ واليافِعون، ومِنْ أقسامه: التّنالُ الأكاديميُّ ، أيّها العصاميُّ الكميُّ، وتَنالُ الوافد إلى بلادِ العَرَبِ الأماجِدِ، وتَنَال السّفير فهُو أقوى ظَهير، وتَنَال لَبَّيك للحَجّ والعُمرةِ ، وقدْ أفلح من يَمَّمَ شطرَه. وإنِّي لقائلٌ فيهِ أبياتًا، مُجتمعةً أو أشتاتًا، فقلنا له: ألقِ ما في جَنانِك، وما يَجِيشُ في حُسْبَانِك .فاندفع مُنشدًا ومُغرّدًا:

طَرقَ السمعَ سؤالٌ
ذو مقامٍ ما التَّنَالُ ؟
هو مقياسٌ دقيقٌ
واختبارٌ وامتثالُ
لمعايرَ تُرَجَّى
راسخاتٍ لا تُزالُ
هوَ للتوظيفِ شرطٌ
ليسَ يَخْفى يا رجالُ
يحرسُ الضادَ ويحميها
إذا اشتدَّ النِّزالُ
يشبهُ التُّوفَلَ في النَّهْجِ
فلا خُلْفٌ يُقَالُ
لستُ أَسْلُو عنهُ يومًا
لو أصابَتْنِي النِّبَالُ
هو للفصحى جمالٌ
وجلالٌ وَكمالُ
سارعوا دومًا إليهِ
لِتَنالوا ما يُنالُ
"لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى"
في ثناياها المِثالُ

إن التّنالَ هو الحصنُ الحصينُ، من اللَّحنِ المُشين . فَحَيَّهَلَا بفنائه الرّحيبِ ،والنُّزولَ النزولَ بِرَبْعِهِ الخصيبِ. فلقد أكرمَتِ الجزائرُ مثواهُ، وتَقفَّتْ شروطَه وخطاه، وحازَت قَصَبَ السّبق ومُنتهاه . وما أَنْسَ لاأَنْسَ أرضَ الكِنانةِ، الّتي أجرَت لمعلّميها امتحانَه، وما تنكبت الأُرْدُنُّ طريقَه، وفيها كانت نشأتُهُ العريقَة . وتمتّعت فلسطينُ بشميم عَرَارِه ، ولَبِست أوزباكستان إكليلَ غارِه. وإني لَأَنْتَشِيَنَّ فرحًا وفخرًا، حينما يدخل ديار العَربِ طُرًّا، ويَلِجُهَا قُطْرًا قُطْرًا.

وَلي أملٌ في اللّه أن يَتَحقَّقَا
قريبًا قريبًا مغرِبًا ثُمَّ مَشْرِقَا
ويحملَ هذا الفضلَ سلطانُ ذو الحِجَا
وَمَنْ كان فينا عالِمًا وَمُدَقِّقَا
ومن رفعَ الراياتِ للعلمِ شُمَّخَا
وَمَنْ كانَ سَبَّاقًا إلى الخيرِ مُنْفِقَا
فَمَنْ لِلسانِ العُرْبِ غَيْرُ نصيرِهِ
أبي خالدٍ مَنْ عاشَ في المجدِ مُعْرِقَا
ومنْ كان في شَتَّى المحافلِ حاضرًا
وَفي سبرِهِ الأغوارَ دومًا مُوَفَّقَا
وفي معجمِ التاريخِ أكبرُ شاهدٍ
فلا غرْوَ إنْ فاقَ السِّماكَ تَأَلُّقَا
فيا أيّها الشيخُ المبجَّلُ زَوْرَةً
تُفَتِّحُ بَابًا كانَ بالأمسِ مُغْلَقَا
وَإنَّ تَنَالَ الضَّادِ يرجو وِصَالَكُمْ
فَهَلْ حَانَ يَوْمٌ فِيهِ يَجْتَمِعُ اللِّقَا؟

فَنَطَقَ الأَشْهَادُ بِقَوْلٍ وَجِيز : ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾

الدِّراسَاتُ اللُّغَويةُ
في غَرِيبِ الحَديثِ النّبويِّ الشّريفِ

د. نبيل قصاب باشي

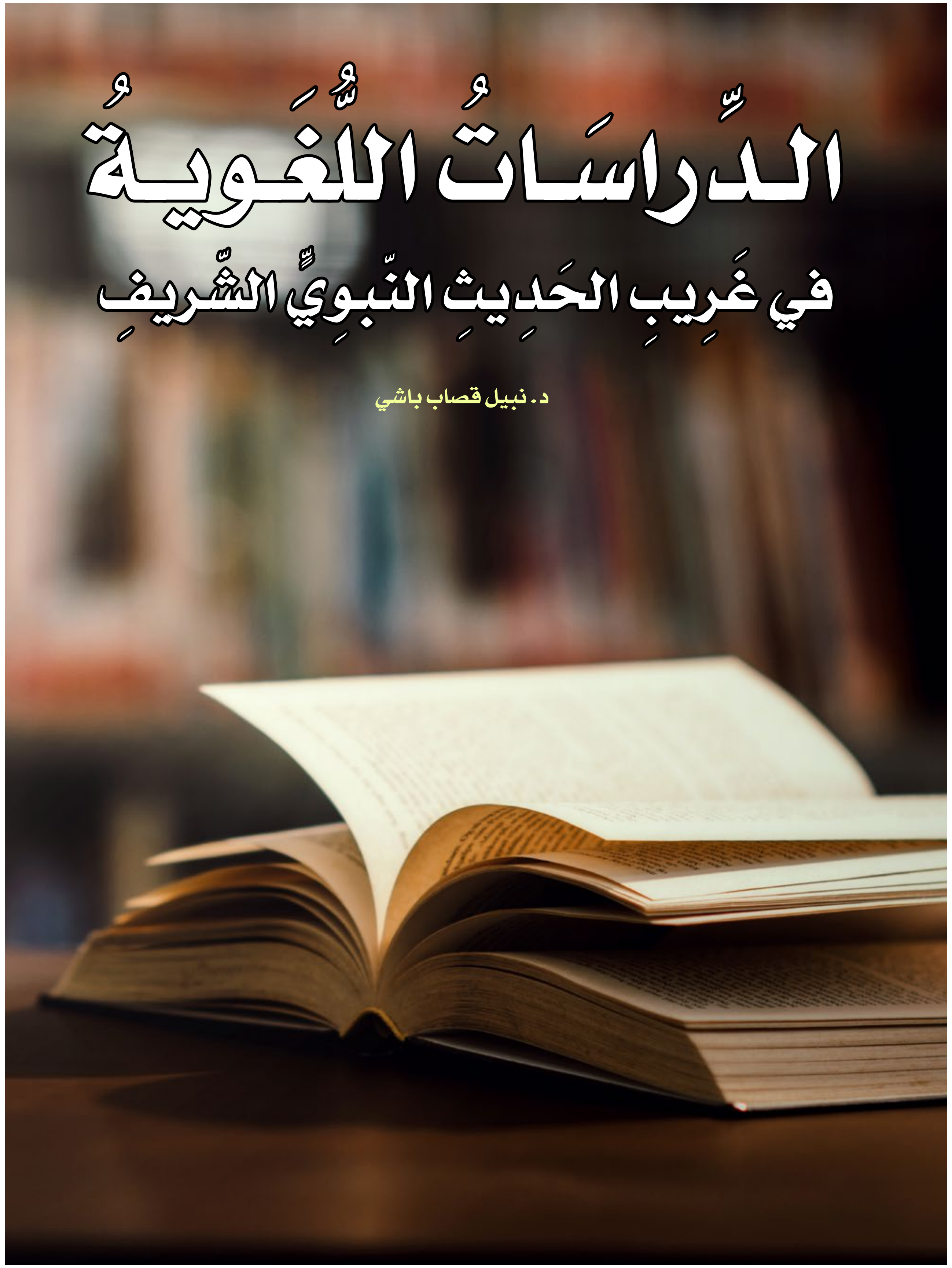

قدْ يَقولُ قائلٌ : ما الّذي تُضيفُه مِثلُ هذه الدِّراساتِ في لُغةٍ مُوغلَةٍ في الغَرابةِ والقِدَمِ إلى رَصيدِ المَكتبةِ اللُّغويّةِ الحَديثةِ، وهِي لُغةٌ بَعيدةٌ عنْ رُوحِ العَصرِ، وعنْ أدَبيّاتِه ومُصطلَحاتِه، ومَدارسِه الأدَبيّةِ واللُّغويّةِ الّتي نَعيشُها اليَومَ ؟ نَقولُ:

أولاً : إنَّ مِثلَ هذه الدِّراساتِ في غَريبِ الحَديثِ النّبويِّ الشّريفِ تُعدُّ الوَثيقةَ الأصليّةَ الخاصّةَ بتوقيعاتِ اللُّغويين الأوَل، الّذِين وضَعُوا مَعاييرَ اللُّغةِ، وقعّدُوا مَقاييسَها النَّحويةَ والصَّرفيةَ، وبَنَوْا منها مَعاجمَ الألفاظِ ومعاجمَ المَعاني؛ فكَيفَ نَقبلُ لُغةً لا أصْلَ لها ولا نَسَبَ؟ بل كيفَ نَقبلُ خِصيصةً لُغويةً، أو قاعِدةً نَحويّةً، أو صِياغةً صَرفيّةً غيرَ مُوثّقةٍ ولا مُحقّقةٍ، وفَنُّ غريبِ الحَديثِ كان المَصدرَ الأوّلَ لتَوثيقِ جُلِّ خَصائصِ فقهِ هذِهِ اللُّغةِ. إنّ غَريبَ الحَديثِ النّبويِّ إذَنْ هو الوِعاءُ الأوّلُ الّذي استوعَبَ لُغةَ العَرَبِ : فِقهَهَا ونَحوَها وصَرفَها؛ ونَحنُ لا نَستطيعُ أنْ نَتعرّفَ بِحَقِّ الإبْدالِ والقَلبَ اللُّغويِّ المَكانيِّ والمَعنويِّ والتّرادُفَ، أو ما اصطُلِح عليهِ بالمُثلّثاتِ اللَّفظيّةِ، أوالجُموعَ وأبنيتَها المُختلفةَ، أو المَصادرَ السّماعيّةَ، أو أن نَتعرّفَ ما شَذَّ مِنْ بِنيةِ بَعضِ الأبنيةِ الصَّرفيّةِ، أو بيانَ أصلِ الكَلمةِ، أو ما اختلَفَ مبْناهُ الصّرفيُّ مع ائتلافِ مَعناهُ، أو ما اختلَفَ حُكمُه الفِقهيُّ باختِلافِ الإعْرابِ أو البِناءِ الصّرفيِّ أو البِنيَةِ اللّفظيّةِ.. لا نَستطيعُ أن نَتعرّفَ كلَّ ذلكَ وغيرَه من قَضايَا اللُّغةِ دونَ هذا الوِعاءِ اللُّغويِّ الثَّرِّ من غَريبِ حَديثِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

إنّ لُغةَ الغَريبِ – بعامّةٍ – هي عَقدٌ شَرعِيٌّ بينَ الأصلِ اللُّغويِّ، وبينَ جَميعِ فُروعِ اللُّغةِ من مَعاجمِ لَفظٍ ومَعاجمِ مَعنًى، مَمهُوراً بتوقيعِ شُهودٍ لا تُرَدُّ لهُم شَهادةٌ، وهل تُرَدُّ شَهادةُ لُغةِ القُرآنِ والحَديثِ الشّريفِ وشَهاداتُ الأعْرابِ ووُفودِ العَربِ الّتي كانَتْ تَفِدُ إلى رَسُولِ اللهِ ﷺ بلُغاتٍ مُختلفةٍ، أصبَحَ شَطرٌ كَبيرٌ مِنْ لُغاتِها قِراءاتٍ قُرآنيّةً اعتمَدَها قُرّاءُ القُرآنِ، وتَوافقَ عليها جَمْعُ المُسلمينَ الغَفيرُ، منْ عَهدِ نُزولِها، وإلى يَومِنا هذا، وإلى يَومِ يَرثُ اللهُ الأرْضَ وما عَلَيها ؟؟

ومِنَ المُستحسَنِ التّنويهُ إلى أنّنا نَعني بغَريبِ لُغةِ النّبيِّ ﷺ اللُّغةَ التي خَاطَبَ بها قَبائلَ العَرَبِ منْ غَيرِ "عَرَبِ العَاليَةِ" (المناطِقَ الغَربيّةَ من نَجْدٍ وهِي الحِجَازُ)، ولا نَعني أنَّ النّبيَّ ﷺ فَقيهُ لُغةٍ يُعدُّ مِنْ فُقهاءِ اللُّغةِ، فهُو نَبيٌّ مُرسَلٌ أرسَلَه اللهُ لِتَبليغِ رِسالتِهِ للعالَمين وحَسْب.

ثانياً : إنّ لُغةَ العَربِ تَمتلكُ في بُطونِها ذَخائرَ جَمّةً من المُفرداتِ المُستعمَلةِ أو المُهمَلةِ التي استَنبطَها الخَليلُ مِنْ تَقاليبِ الاشتِقاقِ الأكبَرِ، وبَنَى علَيها مُعجمَه ((العَين)). ولُغةُ غَريبِ الحَديثِ ذَخيرةٌ مُدّخَرةٌ مِنْ هذِهِ الذّخائرُ الّتِي تُعدّ رَصيداً مَصرفياً لُغوياً، أُوصِدتْ أبوابُهُ ليوم يَجِدُ فيه أهلُ هذِهِ اللّغةِ ضَالّتَهم إليهِ، فهذِهِ العَولمةُ التي نَعيشُها والمَعلوماتيّةُ التي تُحاصرُنا مِنْ كلِّ جانبٍ، ربّما تكونُ لباحِثٍ لُغَويّ مَعلُوماتيِّ فُرجةً له في بِناءِ مُصطلحاتٍ تَعريبيةٍ جَديدةٍ من لُغةٍ قديمةٍ لا يَجِدُ ضالتَّهُ إلّا بِها.

ثالثًا: وممّا يَنبَغي التّنويهُ إليهِ أنَّ تناولَنَا غَريبَ هذِهِ اللُّغةِ استقراءً واستِنتاجاً مَشفوعَيْنِ بالتّحليلِ والتّمثيلِ، إنّما كانَ في غَريبِ لُغةِ النَّبيِّ ﷺ دونَ نَظائرِها مِنْ لُغةِ النَّبيِّ الّتِي وَرَدَت في الصِّحاحِ ورَوافدِها مِنَ المَسانيدِ والمَجاميعِ والسُّنَنِ ؛ لأنّ لُغةَ الحَديثِ في هذِهِ المَراجعِ سُخِّرتْ عندَ مُصنّفيها ومُصنّفي الفُقهاءِ لاستِنباطِ الأحكامِ الفِقهيّةِ والتّشريعيّةِ، لكَونِها سَهلةَ التّناوُلِ والفَهمِ، بحُسبانِها لُغةَ "العَاليَةِ" التي تَبوأتْ رِيادتَها قُريشُ كما زُعِمَ، والّتِي اختارَهَا المَولَى لتكُونَ لُغةَ القرآنِ الكَريمِ.

ومِنْ خِلالِ النَّظَرِ في دِراساتِ غَريبِ الحَديثِ، تَبيّنَتْ لي نُدرةُ الدراساتِ الخاصّةِ بتَحليلِ لُغةِ النّبيِّ تَحليلاً عِلمياً يَتناوَلُ فِقهَها وعُلومَ لِسانياتِها وصَوتياتِها ، بلْ لمْ أعهدْ بَحثاً تناوَلَ مثلَ هذا المَساقِ اللُّغويِّ تَناولاً مَنهجياً أحاطَ بما أودَعَه تفسيرُ الغَريبِ من عُلومٍ لُغَويةٍ ونَحويةٍ وصَرفيةٍ. وبالجُملةِ فإنَّ الدّارِسين المُحدَثين مازالُوا يَتَهيّبُونَ الخَوضَ في غِمارِ هذا الفَنِّ، وقد اقتصَرَ المُحقّقُونَ منهُم على طباعَةِ جلِّ كُتُبِ هذا الفَنِّ، وتهيّبوا الخوضَ في تناوُلِ مناهجِه تناوُلاً علمياً سوى دراسةٍ متواضعةٍ - في منتصفِ سَبعيناتِ القَرنِ الفائتِ - بسطتِ البَحثَ في حركَةِ تأليفِ هذا الفَنِّ للدكتور شَاكِرِ الفحّامِ في مَعرضِ تَوصيفِه وتَعليقاتِه على مخطوطةِ

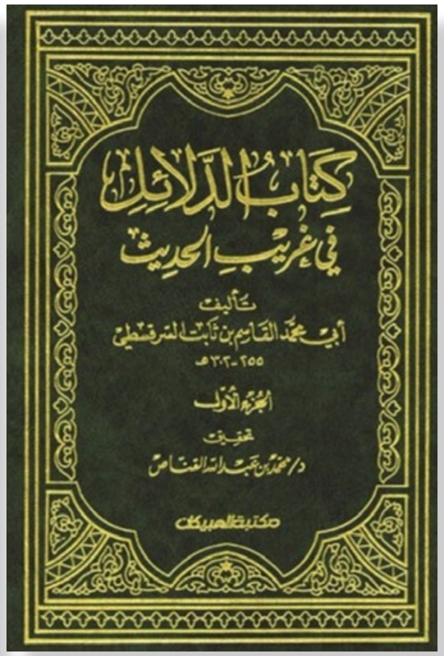

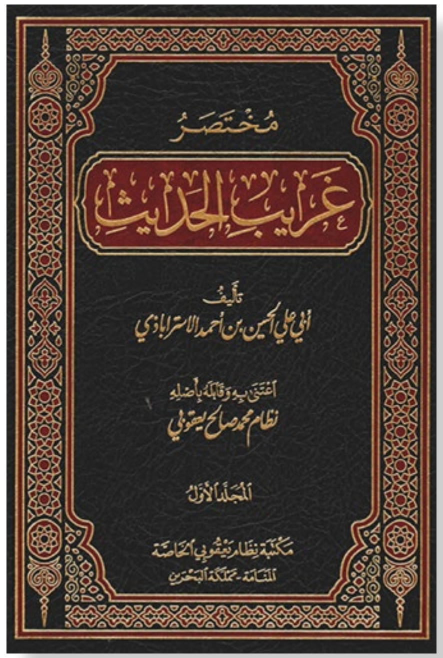

((الدَّلائل في غريب الحديث)) للقاسِمِ بن ثابتٍ السرّقسطيّ في فَصلةٍ من مَطبوعاتِ مجلّةِ مَجمعِ اللّغةِ العَربيّةِ بدِمشقَ.

لقد تَناولتُ تأصيلَ عُلومِ اللِّسانيات والصّوتياتِ في لُغةِ النّبيِّ كاشِفًا عن مَنهجِ لُغةِ النّبيّ ﷺ من خِلالِ ثَلاثةِ فُصولٍ؛ كَشفتُ في الفَصلِ الأوّلِ منها تأثيرَ ضَبطِ البِنيةِ اللّفظيّةِ، وتأثيرِ المُثلّثاتِ اللّفظيّةِ المُتّحدَةِ المَعنَى، والمُختلفَةِ المعنى في تَفسيرِ الغريب، الّذي يَختلفُ مَعناهُ باختِلافِ ضَبطِ مَبناهُ، أو ما كانَ مُختلفاً في ضَبطِ مَبناهُ على الرغمِ منْ كونِهِ مُؤتلفاً في مَعناهُ.

ثمّ استنبطتُ الخَصائصَ اللّغويةَ الّتِي أصّلتْ لعِلمِ فِقهِ اللُّغةِ والصّوتياتِ ودِلالاتِها السّياقيّةِ واللِّسانيّةِ، من خِلالِ الوُجُوهِ اللُّغويّةِ الّتِي تَناولتْ غَريبَ الحَديثِ كالإبْدالِ المُعلَّل، والإبْدالِ في مَخارجِ الحُروفِ المُتقاربَةِ والمُتباعدةِ، سواءٌ أكان ذلكَ في فاءِ الكَلمةِ أمْ في عَينِها أم في لَامِها، وخلُصْتُ في الفَصلِ الثّالثِ إلى آليّةٍ اصطَلَح عَليها اللُّغويُون بالقَلْبِ من خِلالِ نَوعيهِ : المَقلوبِ المُتصرّفِ، والمَقلوبِ غيرِ المتصرّفِ. ودلَّلتُ في نهايَةِ هذا الفَصلِ على ما كان للمُعرَّب الدّخيلِ من دَورٍ في تَفسير الغَريبِ، وإمازةِ ما كان فارِسياً ثمّ عُرّبَ، أو ما استعمَلَه العَربُ وليسَ في كلامِهِم. ويُلاحظُ في هَذَين الفَصلَين أنّ لُغةَ النّبيِّ ﷺ كانتْ اللَّبِنةَ الأولَى في تأسيسِ عِلم فِقهِ اللُّغةِ ؛ وبذلك يُعدّ هذا الفِقهُ الرائدَ الأوّلَ والوعاءَ الأسبَقَ لعُلومِ اللِّسانياتِ والصَّوتياتِ

يَقولُ مازنُ الوَعر : " كانَتْ استِفادةُ اللَّسانِياتِ منَ التُّراثِ اللُّغويِّ العَربيِّ أكثرَ من غَيرِه، على الرّغمِ من أنَّ بعضَ الباحِثين اللِّسانيين الغَربيين لا يَعترفُون بهذِهِ الحَقيقةِ، ذلكَ لأنّ حجَّتَهم هي أنَّ التُّراثَ اللُّغويَّ العربيَّ إنّما هو انعِكاسٌ وحِفظٌ للتّراثِ اللُّغويِّ الإغريقيِّ إلَّا في بعضِ فَرضياتِه الدَّلاليّة الجَديدةِ".

وقد أكملتُ المَنهجَ اللُّغويَّ لفِقهِ لُغةِ النّبيِّ ﷺ، من خِلالِ التّرادُفِ والاشتِراكِ والتّضادّ والإتباعِ والمُزاوجَةِ؛ وهي اللَّبِناتُ الأولَى الّتِي يَتشكّلُ منها الأسّاسُ الأوّلُ لبناءِ عِلمِ اللِّسانياتِ والصّوتياتِ الّذِي اصطُلِح عليه في علومِنا اللُّغويّةِ العَربيّةِ بعلم فِقهِ اللّغةِ.

وكَثيرًا ما ألمَحتُ إلى تفرّدِ العَربيّةِ بهذه الخَصائصِ اللُّغويةِ، الّتِي يتَحقّق إعجازُها في أنَّ جلَّها يتلاءمُ مع ما تَنزعُ إليه فِطرةُ الإنسانِ، من مَيلٍ إلى الاستِرواحِ والتَّخفيفِ، وإلى الانبِساطِ في جِهازِ أعضاءِ النُّطقِ منْ حيثُ تعاملُه مع مَخارجِ الحُروفِ، أو مع الجِهازِ السَّمعيِّ الّذِي يَميلُ هُو الآخَرُ إلى ما يُريحُه من سَلاسةِ صِفاتِ الحُروفِ؛ ولهذا وَجدْنا العَربَ تَطلبُ الإتْباعَ والمُزاوجَةَ، وتَرغبُ عن الهَمزِ والتّضعيفِ، طلباً للاستِرواحِ والتّخفيفِ؛ بلْ تَتركُ الإعْرابَ وتَتجاوزُ قَوانينَ اللّغةِ، وتُخالفُ مَعاييرَهما طَلباً للخِفَّة، وتجنُّباً لثِقل نُطق الحُروفِ، ونَشازِ أصواتها في آنٍ مَعًا.

ثمّ كَشَفتُ عن الوجُوهِ النَّحويّةِ والصّرفيّةِ التي امتازَتْ بها لُغةُ النّبيِّ ﷺ ودَلالاتُها السّياقيةُ واللسانيّةُ والصّوتيّةُ، وأشرتُ إلى تأثير دِلالاتِ الجُموعِ البِنيويّة والمَعنويّةِ في تَفسيرِ الغَريبِ، وأفَضتُ في الحَديثِ عنْ أبنيةِ جُموعِ التّكسيرِ، وعمّا استَوَى فيه الجمعُ والإفرادُ، وما كانَ واحداً بمَعنَى الجَمعِ أو الاثنَين، أو ما كانَ جَمعًا بمَعنَى الواحِدِ أو الاثنَين. وتناولتُ في الفصلِ الثّاني ما لإضمارِ المَحذوفِ من أثرٍ في تَفسيرِ الغَريبِ، ثمّ أحصَيتُ الوُجوهَ النَّحويّةَ جميعَها، وما وَردَ فيها من لُغاتٍ سَماعيّةٍ أو قِياسيّةٍ أو شاذّةٍ، وكَشَفتُ عن توظيفِ فنِّ غَريب الحَديثِ لمَعنَى الغَريبِ ودِلالاتِه ومَرامِيه كوقُوعِ (لا) في ماضِي الفِعلِ بمَعنَى (لمْ)، أو كالتّعجُب السّماعيِّ، أو ما كانَ من إرادةِ اللّفظِ بشطرِ الكلمةِ أو بحُروفٍ منها، أو ما جاءَ من لُغاتِ العَربِ في (بخ بخ) و (واهاً وآهاً) ومعاني (قَط) و (كأيّن) وغيرُ ذلك كثيرٌ.

وتَناولتُ ما وَرَدَ في غَريبِ الحَديثِ منْ أبنيةٍ صَرفيةٍ، خَدَمَتْ تَفسيرِ غَريبِهِ ،وأَثْرَتْ هذا التّفسيرَ بما كانَ لوُجُوه مَبانيها ومَعانيها منْ دَورٍ فاعِلٍ في تَحقيقِ هذا الغَرضِ.

مازنُ الوعر :
« كانَتْ استفادةُ
اللّسانياتِ منَ التُّراث
اللُّغويِّ العَربيِّ أكثر
من غيره، على الرّغم
من أنّ بعضَ الباحثين
اللّسانيين الغربيين لا
يَعترفُون بهذه الحَقيقة،
ذلك لأنّ حجّتَهم هي أنّ
التّراثَ اللُّغويَّ العربيَّ
إنّما هو انعكاسٌ وحفظٌ
للتّراث اللُّغويِّ الإغريقيِّ
إلّا في بعض فَرضياته
الدّلاليّة الجديدة».

القِراءَةُ أُفُقًا للكِتابَةِ: كَيفَ تَبنِي القِراءَةُ الكَاتِبَ العَمِيقَ؟

د. سعيد سهمي

في لِقاءٍ معَ الكَاتِبِ المَصريِّ الرّاحِلِ طَهَ حُسَين في إحدَى القَنَوات التلفَازيَّةِ العَربيّةِ، جَمعَهُ بنُخبةٍ منْ أعمِدَةِ الأدَبِ العَربيِّ أمثَالِ نَجيبِ مَحفُوظ ويوسُف السّباعيّ وعبد الرّحمَن الشَّرقاويِّ وأَنِيس مَنصُور وعبد الرّحمَن بَدَوِي، يُلحّ طَهَ حُسَين على القِراءَةِ والقِراءَةِ الغَزيرةِ والعَميقَةِ شَرطًا للكِتابَةِ ويُؤاخِذُهم على التّقصيرِ في القِراءَةِ، مُعتبِرًا أنّ الكاتِبَ الّذي لا يَقرأُ لا يَكونُ عَميقًا فيمَا يَكتُبُه. وإذا كانَ هذَا حَالَ كِبارِ الكُتّابِ الَّذِينَ وَجَدَ فيهِم طَهَ حُسَين نَوعًا من التّقصيرِ في القِراءَةِ، فإنَّ القَضيّةَ اليَومَ تُثَارُ بشكلٍ أكبرَ في زَمَنٍ تَضاءَلَت فيه القِراءَةُ لَدَى الكُتّابِ العَربِ، وكَثُرت فيهِ الانشِغالاتُ بأمُورِ الحَياةِ الَّتي تَطغَى عليهَا الرَّقميّةُ والوَسائطُ الإلِكترُونيّةُ.

تَفاعُلُ القِراءَةِ والكِتابَةِ

إنَّ توزيعَ الباحِثِ والمُثَقّفِ مُهِمّتَي القِراءَةِ والكِتابَةِ أمْرٌ ليسَ بالهَيِّنِ، وإنَّما يَتطلّبُ خَلقَ الأجْواءِ المُناسبةِ لذلكَ، أو ما يُمكِنُ أنْ نُسَمّيَهُ طُقُوسَ القِراءَةِ و طُقُوسَ الكِتابَةِ، عبر توزيعِ الوَقتِ بين المَهمَّتَينِ بشَكلٍ عادِلٍ، فمِنَ الكُتّابِ مَنْ يَختارُ القِراءَةَ لَيلًا ليَكتُبَ بالنّهارِ، ومِنهُم مَنْ يَقرأُ نَهارًا ويَكتبُ لَيلًا؛ فطُقُوسُ الكِتابَةِ تَختلفُ مِنْ شَخصٍ إلى آخَرَ، كما تَختلفُ طُقوسُ القِراءَةِ، ولِهَذَا لا يُمكنُ للكَاتِبِ أنْ يَكتُبَ بمَعْزِلٍ عن القِراءَةِ. فنَحنُ لا نَقرأُ لنَكتُبَ وإنّما تَأتي الكِتابةُ طَواعيّةً، وبعدَ أنْ تُشحَنَ ذاكِرتُنا بجَمالياتِ القِراءةِ بوَصفِها حافزَ الكِتابَةِ ووَقودَها، فالقِراءَةُ تُنَمّي شَخصيتَنا وتَجعلُنا نَعيشُ حَيواتٍ كَثيرةً ومُتنوعةً، كما يَرَى العَقّادُ، فلا يُمكِننا أنْ نَستفيدَ من تَجارِبِ الآخَرينَ بَعيدًا عن القِراءَةِ، في زَمَنٍ نَعيشُ فيه حَياةً قَصيرةً وضَيّقةً.

منْ جِهَةٍ أخرَى، فإنّ الكاتِبَ الّذي يَقرأُ كَثيرًا لا بُدَّ أنْ يَكونَ أكثرَ عُمقًا منْ غَيرِه فيمَا يَكتبُه، فما يَكتبُه كَثيرًا ما يَكونُ له طَعمُ تَجارِبِ الكِتاباتِ السّابِقَةِ الَّتي لا بُدَّ أن تُنمِّي مَهاراتِه في فَنِّ الكِتابَةِ، وما الكِتابَةُ في الواقِعِ سِوَى نِتاجِ ما يَبقَى في ذَاكِرةِ الكاتِبِ بعدَ أنْ يَقرأَ تَجاربَ الآخَرينَ ونُصوصَهم، وهَذا ما يُطلِقُ عَليهِ بَارْت (R. Barthes) وباخْتِين (M. Bakhtine) وجينيت (G. Genette) وغيرُهم ظاهِرةَ التَّناصِّ أو التّفاعُلِ النَّصِّي، أما الكَاتِبُ الَّذي لا يَقرَأُ فإنَّه غَالبًا ما يَلتقِطُ مَادّةَ ما يَكتبُه من الفَراغِ ومن الواقِعِ المُشوَّه، فيُعِيد صِناعةَ هذا الواقِعِ عِوَضَ تَغييرِه والتَّأثيرِ فيه، وذلكَ لافتِقارِهِ إلى المادَّةِ الأوَّليّةِ للكِتابَةِ النابِعَةِ مِنْ تَأمُّلِه لكُتُبِ الفِكْرِ والفَلسَفةِ والتّاريخِ وغَيرِها ممّا يُحقِّقُ له تلكَ القُدرةَ على الإبدَاعِ والكِتابَةِ.

واقِعُ القِراءَةِ لَدَى الكُتَّابِ اليَومَ

يبدُو، للأسَفِ، أنَّ الأغلَبيّةَ من الَّذين يَكتُبُون اليَومَ لا يَقرَؤون بشَكلٍ كافٍ، ولا تُهمّهُم القِيمةُ العِلميّةُ والإبداعيّةُ لما يَنشُرُونَه، بقَدرِ ما يَبحَثون عن الشُّهرَةِ، لا سِيّما مع انتِشارِ إمكانياتِ النَّشرِ وتوافُرِ المَطبَعاتِ، وتَبايُنِ شُروطِ النَّشرِ منْ مَكتبةٍ إلى أخرَى، وما أتَاحَتهُ الرَّقميّةُ من إمكانياتِ النَّشرِ الإلكترُوني، وقِلّةِ الرَّقابَةِ (بمفهُومها الإيجَابيّ) على الأدَبِ والإبدَاعِ؛ فمِنْ قبلُ كانتِ المَطبعاتُ لا تَنشُرُ إلّا ما يَستَحِقّ النَّشرَ، أما اليومَ فقدْ أصبَحَتِ الكِتابةُ لا تَخضَعُ للشُّروطِ السّابِقَةِ، وأصبَحَ المَرْءُ يَفتخِرُ بغَزارَةِ ما يَكتُبُ، لا بقِيمَةِ ما يَكتبُه، فبَعضُهم يَكتُبُ كلَّ شَهرٍ كِتابًا، ومنهُم مَنْ لمْ يَلِجِ المَدرسةَ ولا مَرَّ بأيِّ تَكوينٍ عِلميٍّ يَكتُبُ عَشراتِ الكُتُبِ تَحتَ مُسمّياتٍ مُتعدّدةٍ، وغَيرِ مُصنَّفةٍ ضِمنَ أيِّ مَجالٍ عِلميٍّ أو إبداعيٍّ ومَعَ ذلكَ ذَاعَت شُهرتُه، على الرُّغمِ مِنْ خُلوِّ ما يَكتُبُه مِنْ أيَّةِ جَودَةٍ أسلُوبيّةٍ أو إبداعِيّةٍ أو عِلميّةٍ، وقدْ أتاحَتْ مَواقعُ التّواصُلِ الاجتِماعيِّ اليَومَ للإنسَانِ أنْ يُحقِّقَ الشُّهرةَ كيفَمَا كانَ مُستَواه العِلميُّ.

البَحثُ الجامعيُّ ومُشكِلُ القِراءَةِ

في الجَامعاتِ العَربيّةِ - التي تُهِمُّنا - غالبًا ما تَجِدُ الطالِبَ الباحِثَ في مُختلفِ التَّخَصُّصاتِ الجامِعيّةِ يُعرِضُ عن الكِتابِ ويُركِّزُ على خُلاصاتِ الكُتُبِ وعلى مُقدّماتِها، فيُعيد ويُكرّر ما فيها، وهذِهِ النَّازِلةُ تَجعلُ الكِتابةَ البَحثيّةَ غيرَ ذاتِ مَعنًى؛ حَيثُ أصبَحَ لا يُهِمُّ الطالِبَ الباحِثَ إلا الاستِشهادُ بنُتَفٍ مِنَ

المصادرِ والمَراجِعِ، بحَيثُ يَعمِدُ إلى بَترِ جُملٍ خاطِفةٍ من الكِتابِ والَّتي قدْ تَتَعارضُ أفكارُها مَعَ جُملٍ في مواقِعَ أخرَى منَ الكِتابِ نفسِه دونَ أن يَفطِنَ إليهَا.

ويَكْبُرُ المُشكِلُ حينَ نَجِدُ أنَّ بَعضَ المُشرفينَ على البُحُوثِ الجامِعيّةِ والمَعنِيينَ بمُناقَشةِ الطالِبِ الباحِثِ لا يُكلِّفُونَ أنفُسَهم عَناءَ قِراءةِ البَحثِ بالشَّكلِ الكافي للتَّعمُّقِ فيهِ، بحَيثُ يَقومُونَ بقراءةٍ مَسحِيّةٍ لما كُتِبَ، لا سِيّما إذا كانَ البَحثُ غيرَ ذِي فائدةٍ تُذكَرُ، وكانَ حَريًّا بِهِم أن يَعودُوا إلى المَصادرِ والمراجِعِ قِراءةً وبَحثًا وتَنقيبًا، وهُو ما يَجعلُ البَحثَ في غالِبِ الأحيانِ عَمَلاً مَكرورًا، أضِفْ إلى ذلكَ أنَّ الطالِبَ – في الغالبِ – لا يُكلِّفُ نَفسَه عَناءَ الذّهابِ إلى المَكتباتِ الجامِعيّةِ والتَّواصُلِ مع الجامِعاتِ العالَميّةِ والعَودةِ إلى خُلاصاتِ البُحوثِ كي لا يَتِمَّ تَكرارُ ما سَبَقَ إنجازُهُ منْ بُحُوثٍ.

هذِهِ المُعضلةُ تُسهِمُ – دونَ شك – في تراجُعِ البَحثِ العِلميِّ العَربيِّ، وتَجعلُ العَمَلَ في مُختلَفِ التّخَصُّصاتِ بمثابَةِ شَيءٍ تفرضُهُ الضَّرورةُ لا غيرَ، بحيثُ يَنتَهي البَحثُ ويَتَوقّفُ بحُصُولِ الطالِبِ على الشَّهادَةِ الجامِعيّةِ.

هَوَسُ القِراءَةِ عِندَ بَعضِ الكُتّابِ

إنّ إدْمـانَ القِراءَةِ، أو هَوَسَ القِراءَةِ، أو البِيبليُومانيا (Bibliomania) باللُّغةِ الإنجليزيّةِ، والَّذي عَانَى مِنهُ أشهَرُ قارِئٍ في القَرنِ التّاسِعِ عَشَرَ تُوماس فيلِيبس (Thomas Phillipps)، عَانَى منهُ – أيضًا – بَعضُ عَمالقةِ الأدَبِ والفِكرِ فيما مَضَى؛ نجِدُ ذلكَ في تجارِبَ مُتعدِّدةٍ على الكاتِبِ العَربيِّ اليومَ أن يَعودَ إليها، وهي تَجارِبُ عاشَهَا بَعضُ الكُتّابِ الغَربيينَ أمثالَ بُورخيس الّذي كانَ يَتخيّلُ "الفِردَوسَ على شَكلِ مَكتَبَةٍ"، وباشلار الّذي كانَ يَدعُو اللهَ كلَّ صَباحٍ "اللهمَّ أعطِنا كُتُبًا كَفافَنا"، ومنْ أشهَرِ هؤلاءِ جَميعًا الشّاعِرُ الفَرنسيُّ أندري شينِيي ((André Chénier الذي يَذكرُ المُؤرِّخُونَ أنّه في وقتِ إعدامِهِ، كان يَقرأُ كِتابًا لسُوفوكليس والجَلّادونَ يَقطَعُونَ الرُّؤوسَ بالمِقْصَلَةِ، فلما حانَ دَورُهُ، ثَنَى ركنَ الورقةِ كي يُعلِّمَ على الصَفحَةِ التي وَصَلَ إليها، ثم دَسَّ الكِتابَ في جَيبِهِ، ومَضَى إلى المِقْصَلَةِ.

ومن الكُتّابِ العَربِ يُمكنُنا أنْ نَذكُرَ طَهَ حُسَينَ الّذي لم تَمنعْه عاهتُهُ البَصريّةُ من قِراءةِ آلافِ الكُتبِ اعتِمادًا على حاسّةِ السَّمعِ، ولَعلَّ ما كَتَبَه مِنْ عُمقٍ فكريٍّ ومَعرفيٍّ لم يكنْ سِوَى نَتيجةٍ لتلكَ القِراءةِ الغَزيرَةِ، كما يُمكنُ التذكيرُ بعَبّاس محمُود العَقّادِ الذي تَرَكَ كُتبًا كَثيرةً تجاوزتْ مِائةَ كتابٍ في مُختلفِ أشكالِ المَعرفةِ وفُنونِ القَولِ، وكانَ يقولُ: "أحبُّ الكُتبَ؛ لأنَّ حَياةً واحدَةً لا تَكفيني".

لِماذا القِراءَةُ؟

القِراءَةُ هي – أولًا وقبلَ كلِّ شَيءٍ – جُزءٌ لا يَتَجَزّأُ من الإنسانِ سَواءٌ أكانَ مُثقّفًا أمْ لمْ يَكُن، بل إنّها ضَروريةٌ من أجلِ خَلقِ نَوعٍ من التّوازُنِ النّفسيِّ لكلِّ فَردٍ، ولذلكَ كان بروست (Marcel Prouste) يَعُدّ " القِراءةَ بمثابَةِ صداقةٍ (amitié)"، وعَبْرَ القِراءةِ تتقدّمُ الأمَمُ والشّعوبُ وترتَقي، ولا يُمكنُ تَخيُّلُ أمّةٍ تقدّمَتْ دونَ الاعتِمادِ على المَعرفةِ الّتي لا يُمكنُ الحُصولُ عَليها خَارِجَ الكِتابِ.

١- القِراءَةُ تَصقُلُ أدَواتِ الكِتابَةِ

لا شَكَّ أنّ الكاتِبَ الذي يَقرَأ كَثيرًا سَتَتجدّدُ لديه آليّاتُ الكِتابَةِ فيطوِّرُ في أسلوبِه ولُغَتِه عِوضَ اجترارِ الأسلوبِ نَفسِه، فالكاتبُ الّذي لَديهِ ثَقافةٌ واسِعةٌ نَتيجةَ تعدُّدِ قراءاتِهِ لا بُدَّ أن يكونَ لَديهِ أسلُوبٌ قَويٌّ وعَميقٌ في الكِتابَةِ، يقولُ أندري أوزولياس "لا شَيءَ يُمكنُهُ أنْ يُعلِّمَك الكِتابةَ أكثَرَ منْ إتقانِكَ لفنِّ القِراءَةِ".

٢- القِراءَةُ تُعمّقُ فِكرَ الكاتِبِ

يَنبَغي على الكاتِبِ الّذي يُريدُ أنْ يَكتُبَ في موضوعٍ مُعيَّنٍ أن يقرأَ ما كَتَبَهُ الآخَرُونَ في المَوضوعِ نَفسِه، لا سِيّما أنَّ الوَسائِطَ الحَديثَةَ أتاحَتْ هذه الإمكانِيّةَ بشَكلٍ لم يكنْ مُتاحًا مِنْ قَبلُ، وسيُقدّمُ للقارئِ عُصارَةَ ما قَرَأهُ من تَجارِبَ، ثمَّ لا بُدَّ أن يُضيفَ إليها من رُوحِهِ وفِكرِهِ.

٣- القِراءَةُ تَبني مَلَكةَ النّقدِ الذّاتيّ

إنَّ بعض الكتّابِ لا يَقرؤُونَ حتى ما كُتِبَ بِشَأنِ مُؤلَّفاتِهم من بُحوثٍ وغيرِها فيُحافظُونَ على الأفكارِ نفسِها والأسلُوبِ نفسِه، والحَقُّ أنَّهُم لو اطَّلَعُوا على ما يُكتبُ بِشَأنِ مُؤلَّفاتِهم بعُمقٍ، لوَجَدُوا أنّهُم بحاجَةٍ إلى نَوعٍ من التّغييرِ والتّجديدِ وإعادَةِ النَّظَرِ في تَجارِبِهم السّابقَةِ.

٤- القِراءَةُ تصنعُ المَوهبة

إنّ القِراءَةَ هي الّتي تُنتِجُ مَوهبةَ الكاتِبِ؛ فحينَ يَقرأُ في مَوضوعٍ مُعيّنٍ بذائقةِ المُبدِعِ المُتذوِّقِ لا بُدَّ أن تُحفّزَهُ هذِهِ العَمليّةُ على الكِتابَةِ، ومِنْ ثَمَّةَ تكونُ لديهِ القُدرةُ على الإنتاجِ والإبدَاعِ، والحَقُّ أنّ طلبَةَ الجامِعاتِ المُطالَبينَ بإنجازِ بُحوثٍ جامِعيّةٍ هُم في حاجَةٍ لمُراكمَةِ القِراءَةِ في تَخصُّصاتِهم حتّى يَستطيعُوا اختيارَ موضُوعاتِ بُحُوثِهم العِلميّةِ.

> "لا يُمكِنُ للكَاتِبِ أنْ يَكتُبَ بمعزِلٍ عن القِراءَةِ. فنَحنُ لا نَقرأُ لنَكتُبَ وإنّما تأتي الكِتابةُ طَواعيّةً، وبعدَ أنْ تُشحَنَ ذاكِرتُنا بجَماليّاتِ القِراءَةِ بوَصفِها حافِزَ الكِتابَةِ ووَقودَها"

المُثَنّيَاتُ في التُّرَاثِ اللُّغَوِيِّ

د/ إبراهيم سند إبراهيم

المُثَنَّيَاتُ ألفاظٌ أوجَدَها الاستِعمالُ اللُّغويُّ للدَّلالَةِ على اسمَينِ يَجمَعُ بَينَهما رَابطٌ مُحدَّدٌ، كقولهم: (العُمَران) لأبي بَكرٍ وعُمَرَ، و(الأبَوَان) للأبِ والأمِّ، و(الأذَانان) للأذَانِ والإقَامَةِ، و(القَمَران) للشَّمسِ والقَمَر، و(البَصرَتان) للبَصْرَةِ والكُوفَة، و(المَشرِقَان) للمَشرِقِ والمَغرِب، و(البَائعَان) للبَائعِ والمُشتَرِي، و(الأحْمَرَان) للخَمْرِ واللَّحْمِ، و(الحَرَمان) لمَكَّةَ والمَدينَةِ، و(الغَارَان) للبَطْنِ والفَرْجِ، و(الحَجَران) للذَّهَبِ والفِضَّةِ، و(الجَديدَان) لِلَّيلِ والنَّهَار، ويُقالُ لهما أيضًا: الأجَدَّان، والفَتَيَان، والأَهْرَمَان، والأحْدَثَان، والجَذَعان،... إلخ.

فَظاهِرةُ المُثَنَّيَاتِ تَقُومُ على إيجادِ المُتكلِّمِ لَفظًا يَجمعُ في خَصائصِهِ إحدَى الصِّفاتِ المُشتَركَة بينَ لَفظَيْه؛ ولها وظيفَةٌ بارِزَةٌ في نُمُوِّ العَربيَّةِ وتوليدِ ألفاظٍ جَديدَةٍ في الاستِعمالِ اللُّغويِّ، وقدْ سُمِّيتْ بهذا الاسْمِ؛ لأنَّها تَدُلُّ على مُثَنَّى، كما أنّ بِنيتَها الصَّرفيَّةَ تَنتَهي بالألِفِ والنُّونِ في حالَةِ الرَّفعِ، أو الياءِ والنُّونِ في حالتَي النَّصبِ والجَرِّ كالمُثَنَّى تَمامًا، وتَقومُ على الإيجَازِ في الكَلامِ، والتَّعبيرِ بألفَاظٍ جَديدَةٍ عن المَعَاني الَّتي يَقصِدُها المُتكلِّمُ.

والمُثَنَّيَاتُ نوعَان: تَلقِيبيٌّ وتَغليبيٌّ، فالتَّلقيبيُّ إذا أُفرِد لم يُفِدْ المَعنَى المَوضُوعَ لَهُ في التَّثنِيَةِ، ولا يَصِحُّ إطلاقُهُ على أحَدِ المُسَمَّيين، فإذا أُفرِد هذا المُثَنَّى بحَذفِ الألِفِ و النُّونِ لا يَصِحُّ إطلاقُهُ على أحَدِهما، نحو: (الرَافِدَان) لدِجلَةَ والفُرَاتِ، أما المُثَنَّى التَّغليبيُّ إذا أُفرِد صَحَّ إطلاقُهُ على المُتغلِّبِ من الاثْنَين، نحو (القَمَران) للشَّمسِ والقَمَر، يَصِحُّ إطلاقُ المُفرَدِ على أحَدِهما وهُوَ (المُتغلِّب مِنهُما).

وقد اهتَمَّ اللُّغَويُون قديمًا وحَديثًا بظاهِرَةِ المُثَنَّيَاتِ في اللُّغَةِ، ومنْ ذلكَ ما نَجِدُه عند ابنِ السِّكِّيتِ (ت244هـ) في كتابِهِ (إصْلاحِ المَنطِقِ)؛ حَيثُ تناوَلَ الظَّاهِرةَ في أربعَةِ فُصولٍ هي: (ما جَاءَ مُثَنَّى، والاسمَانِ يَغلبُ أحَدُهما على صاحِبِهِ لِشُهرتِهِ أو لِخِفَّتِهِ، وما أتَى مُثَنَّى مِنْ أسماءِ النَّاسِ لاتِّفاقِ الاسمَين، وما جاءَ مُثَنَّى مِمّا هو لَقَبٌ وليسَ باسْمٍ).

وما نَجِدُه عند أبي جَعفرٍ البَغداديِّ (ت245هـ) في كتابَه: (ما جَاءَ اسمَانِ أحدُهما أشهَرُ مِنْ صَاحِبِه فسُمِّيَا بِهِ)، وهذا الكِتابُ يَشتَمِلُ على ستٍ وأربَعينَ لَفظَةً مُثنّاة، وقد نَشرَه مُحمّد حُميد اللهِ في مجلَةِ المَجمعِ العِلميِّ العِراقيِّ في العَدَدِ السّابِعِ والأربَعين.

ثَمَّ جاءَ بعدَهُما أبُو الطَّيِّبِ اللُّغويُّ (ت351هـ) فألَّفَ كِتابَهُ (المُثَنَّى)، وقد نُشِر هذا الكِتابُ بتَحقيقِ عِزِّ الدِّين التَّنوخيِّ في مجلَةِ المَجمَعِ العِلميِّ العَرَبيِّ بسُوريَا في المُجَلَّدِ الخامسِ والثَّلاثين الجُزأين (الثَّالثِ والرابعِ) عامَ 1960م، ثم أُعيدَ نَشرُه في العامِ نَفسِه في كِتابٍ مُستقِلٍّ ضِمنَ مَطبوعاتِ المَجمعِ العِلميِّ بدِمشق، وقدْ قَسَّمَ أبُو الطَّيِّبِ اللُّغويُّ المُثنَّياتِ [تَقسيمًا دِلاليًّا] إلى عَشرةِ أصنافٍ، هي:

1) الاثْنَانِ غَلَبَ اسمُ أحدِهما على اسمِ صَاحِبِه، مِثلُ قولِهِم: (الفُراتَان): لدِجلَةَ والفُرَاتِ.

2) الاثْنَانِ جَمَعهما في التَّثنِيَةِ اتّفاقُ اسميهِما، مِثلُ قولِهِم (البَائِعَان): للبَائِعِ والمُشتَرِي؛ لأنَّ المُشترِي أيضًا بَائِعٌ، يُقالُ: بِعتُ الشَّيءَ إذا اشتَرَيتُهُ.

3) الاثْنَانِ غَلَبَ نَعتُ أحدِهما على نَعتِ صاحِبِه، مِثلُ قولِهِم (الأسمَرَان): للخُبزِ والمَاءِ، والماءُ ليسَ بأسْمَرَ.

4) الاثْنَانِ جُمِعا في التَّثنِيَةِ لاتّفاقِ نعتَيْهِما، مثلُ قولِهِم (الأصْمَعَان): للرَّأيِ الحَازِمِ والقَلبِ الذَّكيِّ.

5) الاثْنَانِ غَلَبَ عَلَيهما لَقَبٌ واحِدٌ مِنهُما، مِثلُ قولِهِم (البُرَيْكَان): لِقرطٍ وعامرٍ ابنَا سَلَمَة بن قُشَير، وهما البُرَيك وبارك.

6) الاثْنَانِ يَجمَعهما لَقَبٌ واحِدٌ، مِثلُ قولِهِم (الطَّيِّبَان): لأبي بَكرٍ وعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما.

7) الاثْنَانِ ثُنِّيا باسْمِ أبٍ أو جَدٍّ، أو أحدِهما ابنُ الآخَر فَغَلَبَ اسمُ الأبِ، مِثلُ قولِهِم (الأَحْوَصَان): للأَحْوَص بن جَعفَر وعَمرو بنِ الأحْوَص.

8) الاثْنَانِ اللَّذَانِ لا يُفرَدَان مِنْ لَفظِهما، مِثلُ قولِهِم (العَصْرَان): لِلَّيلِ والنَّهَارِ.

9) الاثْنَانِ في اللَّفظِ يُرادُ بِهِما الوَاحِد، مِثلُ قولِهِم (مَاتَ حَتْفَ أَنْفَيْهِ)، والمُرادُ: حَتْفَ أَنفِهِ، أي: ماتَ على فِراشِهِ.

10) الاثْنَانِ يُثنَّيان وإن اكتُفِي بأحدِهِما لم يَنقُص المَعنَى، مِثلُ قولِهِم (وَقَعَتْ عَينُهُ عَلَيَّ)، أي: عَينَاهُ.

ثمَّ أَلَّفَ مُحَمَّد أمينُ المُحِبِيُّ (ت1111هـ) كتابَهُ: (جَنَى الجَنَّتَين في تَمييزِ نَوعَي المُثنَّيين)، وقد طُبِع هذا الكِتابُ بدَارِ الآفاقِ الجَدِيدَةِ بِبَيروت عام 1981م، وفي العَصرِ الحَديثِ جَمَعَ شَريفُ يَحيَى الأمينُ المُثنَّياتِ اللُّغويةَ في مُعجَمٍ مُستَقِلٍ بعنوان: (مُعجَم الألفاظِ المُثنَّاة)، ورتَّبَه ترتيبًا هِجائيًّا وَفقَ حُروفِ المُعجَمِ العَرَبيِّ، وصَدَرَ عام 1982م عن دارِ العِلمِ للمَلايين بِبَيروت.

ثمَّ كانت دراسَةُ عَطِيَّةَ سُليمان بعُنوانِ: (التَّوليدُ الدِّلاليُّ في المُثنَّيات: 2009م)، وفيها أَشَارَ المُؤلِّفُ إلى الإبْدَاعِ اللُّغويِّ حينما تَتَجَلَّى القُدرَةُ الإبداعيَّةُ للمُتكَلِّمِ في مُلاحَظَةِ نُقطَةِ الالتِقاءِ بينَ اللَّفظَين (من صِفةٍ أو شَبَهٍ أو غيرِ ذلك) لإنتاجِ لَفظٍ ثَالثٍ، فقامَ بحَصرِ (المُثنَّيات) وتوزيعِها على حُقولٍ دِلاليَّةٍ مُختلِفةٍ في إطارِ نَظَريَّةِ الحُقُولِ الدِّلاليَّةِ، وقد اتَّخَذَ مِنْ نَظريَّةِ (العَلاقاتِ الدِّلاليَّةِ) مُنطلَقًا لتَوضيحِ أسبابِ الدَّمجِ بينَ اللَّفظَينِ لِمعرفَةِ صُورةِ المُنتَجِ النِّهائيِّ، والعَلاقاتِ الَّتي تقومُ بينَهُما كالعَلاقاتِ الاستِعاريَّةِ والكِنائيَّةِ وعَلاقاتِ المُجَاوَرَة... إلخ.

وقد اهتَمَّ أصحَابُ المَعاجِمِ العَربيَّةِ بظاهِرَةِ المُثنَّياتِ في مُؤلفاتِهِم، ومِنْ ذلك ما ذَكَره ابنُ دُرَيدٍ (ت321هـ) في جَمهَرَةِ اللُّغَةِ، والفَارابيُّ (ت350هـ) في ديوانِ الأدَبِ، والأَزهَرِيُّ (ت370هـ) في تَهذيبِ اللُّغَةِ، والجَوهرِيُّ (ت393هـ) في تاجِ اللُّغَةِ وصِحاحِ العَرَبيَّةِ، وابنُ سِيدَه (ت458هـ) في المُخَصَّص، وابنُ مَنظُور (ت711هـ) في لِسانِ العَرَبِ.... إلخ، فهذِهِ المُؤلَّفاتُ وغَيرُها من المَعاجِمِ العَرَبيَّةِ قد حَوَتْ عَدَدًا مِنْ ألفاظِ المُثنَّياتِ، واحتَفَظَ المُتأخِّرُ منهَا زَمنيًّا بعدَدٍ أكبرَ من ألفاظِ المُثنَّياتِ، وهذا أمرٌ طَبَعِيٌّ بحُكمِ النُّمُوِّ والتَّطَوُّرِ اللُّغَوِيِّ.

وقد وَرَدَت المُثنَّياتُ اللُّغَويَّةُ في مُستوياتِ الاستِعمالِ المُختلِفَةِ (كالقُرآنِ الكَريمِ، والحَديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ، وآثارِ الصَّحابَةِ والتَّابعينَ، وأشعَارِ العَرَبِ وأقوالِهِم)، ففي الاستِعمالِ القُرآنيِّ يقولُ تعالى:﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء: 11]،﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾[النساء: 11]، ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ [الكهف:80]، والأبوانِ المُرادُ بهما: الأبُ والأمُّ، وهو مُثَنًّى تغليبيٌّ، ويقولُ تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:31]، والقَريَتانِ هما: مَكَّةُ والطَّائفُ، ويقولُ تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن:31]، والثَّقَلانِ المَقصُودُ بهما: الإنْسُ والجِنُّ.

وفي الحَديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ ما رُوِيَ عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ عُمَرَ، أنَّهُ قالَ: "لَمْ أَرَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ يَمْسَحُ مِنَ الْبَيْتِ إِلَّا الرُّكْنَيْنِ الْيَمَانِيَيْنِ"، و(الرُّكنَانِ اليَمانِيانِ) هُما: الحَجَرُ الأسوَدُ والرُّكنُ اليَمانيُّ، وإنَّما قيلَ لهما: (اليَمَانيان) للتَّغليبِ، وللبيتِ أربَعَةُ أركانٍ: الرُّكنُ الأسوَدُ والرُّكنُ اليَمانيُّ، ويقالُ لهما: اليَمَانِيانِ ، وأمَّا الرُّكنَانِ الآخَرَانِ فيقالُ لهما: الشَّامِيَانِ.

وما رُوِيَ عَنْ عُروَةَ بنِ الزُّبَيرِ عَنْ عائِشَةَ، أنَّها كانتْ تَقولُ:

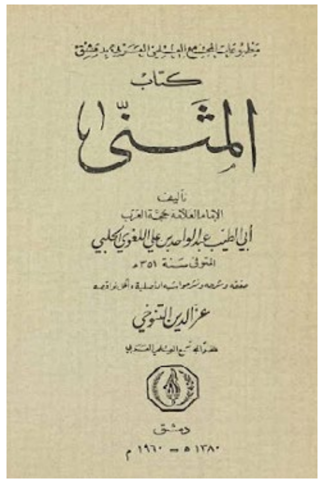

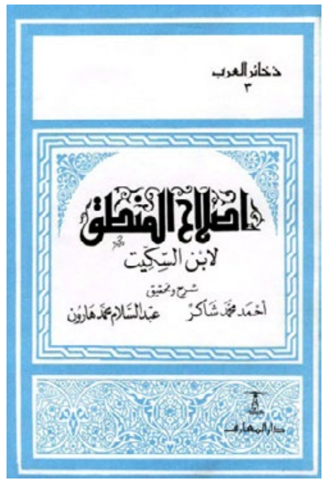

"واللهِ يا ابنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَارٌ"، قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟، قَالَتْ: "الْأَسْوَدَانِ (التَّمْرُ وَالْمَاءُ)..."، فالأَسْوَدَانِ المَقصُودُ بهما: الماءُ والتَّمرُ، حَدَثَ تَغليبٌ لإحدَى صِفاتِ اللَّفظَينِ [صِفةُ السَّوادِ في التَّمرِ]، وإطلاقُ لفظٍ آخَرَ (ثالثٍ) يَجمعُ اللَّفظَينِ مَعًا.

وقد ذَكَرَ بَعضُ الرُّوَاةِ أنه لمَّا استُخلِف عُمَرُ بنُ عبدِ العَزيزِ قَدِمَ عليه وَفدُ أهلِ كلِّ بَلدٍ، فتقدَّمَ إليهِ وفدُ أهلِ الحِجازِ، فاشْرَأَبَّ منهُم غُلامٌ للكَلامِ؛ فقالَ عُمَرُ: يا غُلامُ؛ يَتَكلَّم مَنْ هُوَ أسَنُّ مِنكَ، فقالَ الغُلامُ: يا أميرَ المُؤمنينَ؛ إنَّما المَرءُ بأصغرَيهِ (قَلْبِهِ ولِسانِهِ)، فإذا مَنَحَ اللهُ عبدًا لِسانًا لافِظًا، وقَلبًا حافظًا، فقدْ أجادَ لهُ الاختِيارَ...، فـ(الأصغرَانِ) لَفظٌ يُطلقُ على: القَلبِ واللِّسَانِ.

وقد صَنَعَتِ اللُّغَةُ مِنَ التَّثنِيَةِ بنيةً صَرفيَّةً تَنتَهي بـالألِفِ والنُّونِ أو اليَاءِ والنُّونِ إشارةً إلى المُثنَّياتِ إيجازًا في القَولِ، وهي إحدَى الخَصائِصِ اللُّغَويَّةِ الَّتي تَمَيَّزَت بها العَرَبيَّةُ عَنْ غيرِها من اللُّغاتِ الأخرَى، وهي تَبرُزُ قُدرتَها على استيعَابِ الألفاظِ، والتَّعبيرِ عَنِ اللَّفظَينِ المُتشابِهَينِ في بعضِ الخَصائِصِ أو الصِّفاتِ بلَفظٍ واحِدٍ إيجازًا في اللَّفظِ، واقتِصادًا في الاستِعمالِ اللُّغَويِّ.

> **"المثنَّياتُ إحدَى الخَصائِصِ اللُّغَويَّةِ الَّتي تَمَيَّزَت بها العَرَبيَّةُ عن غيرِها من اللُّغاتِ الأخرَى، وهي تَبرُزُ قُدرتَها على استيعَابِ الألفاظِ، والتَّعبيرِ عنِ اللَّفظَين المُتَشابِهَين في بعضِ الخَصائِصِ أو الصِّفاتِ بلفظٍ واحدٍ إيجازًا في اللَّفظِ، واقتِصادًا في الاستِعمالِ اللُّغَويِّ"**

لغتي

حمدي هاشم حسانين

عَروسُ اللُّغاتِ وروضُ الزَّهَرْ ... أريجُ الحروفِ إذا ما انتَشرْ
وشمْسُ الحديثِ إذا ما تَهادى ... هُنا أو هناكَ يَبثُّ الخبَرْ
وقرآنُ ربّي بهذا اللسانِ الْفَصيح ... أتى لجميعِ البَشرْ
هيَ اللحْنُ يشدو فتَرنو النُّجومُ ... للحْنٍ شجيٍّ شَداهُ القمرْ
وأنتِ الثَّريَّةُ مثْلَ البِحارِ ... فَفيكِ الجَواهرُ فيكِ الدُّرَرْ
وكالنَّخلِ دوماً تجودينَ دوماً ... لِمَنْ قدْ أتاكِ بأشْهى الثَّمرْ
فيا لغةَ العُربِ تيهي بفخْرٍ ... ففيكِ البصيرةُ حَذْوَ البصرْ
تَشِعُّ الفَرائِدُ منْكِ سَنًا ... يُفتِّقُ ذهْنًا بخيرِ الفِكَرْ
رحيقُ البلاغةِ منكِ جَرَى ... فأنتِ العذوبةُ أنتِ النَّهَرْ
وكيفَ نُغنّي إذا غبتِ عنا ... وأنتِ الكلامُ وسحرُ الوترْ
هُويَّتُنا أنتِ إرْثُ العروبة ... كنزٌ مليءٌ بأرقى الصورْ
عَبيرَ الكتابَةِ أنْتِ المُنَى ... هواءٌ وماءٌ ووجهٌ أغرْ
نحبُّكِ يا رمزَ عزٍ ومجْدٍ ... ويا واحةً زُيِّنتْ بالشجرْ
ويا لغةً حرفُها فيهِ سرٌّ ... بها أُنزلَ اللهُ كلَّ السورْ
فدرْبُكِ مَنْ سارَ فيهِ تهادى ... ونَالَ المَرامَ ونالَ الوطَرْ
ومَنْ حادَ عنكِ سيبقى غريبًا ... يسيرُ بدرْبٍ كثيرِ الحُفرْ
أتيتُكِ يحْدو فؤادي الحنينُ ... وقفتُ أطلتُ إليكِ النظرْ
أتيتُكِ أشكو ظلاماً تفشّى ... فهل تُسعفينا ببعضِ الشررْ؟
فأنتِ كشمسٍ وبدرٍ مضيءٍ ... ودونكِ نحنُ كليلٍ عَكِرْ
لنا الفخْرُ أنّا إليكِ انتسبنا ... ومنكِ ارتوينا طَوالَ العُمُرْ
هيَ الضادُ أنعِمْ بها منْ لسانٍ ... هيَ الضادُ أحلى هدايا القدرْ
وسوقُ عكاظٍ كعيدٍ بهيٍّ ... كفردوسِ شِعْرٍ أتاها البشرْ
أتتْها القبائلُ منْ كلِّ صوبٍ ... فهذي غِفارٌ وهذي مُضرْ
وهذي كليبٌ وهذي قريشٌ ... وأهلُ الفصاحةِ كُلٌّ حَضرْ
يقولونَ شعراً فترنو النجومُ ... وتُصغي السَّماءُ لهذي العِبَرْ
وَهذي نَفائسُهُ عُلِّقتْ ... على كعبةِ اللهِ فوقَ الجُدُرْ
هيَ الضّادُ تَبْقى مَدى أَزْمُنٍ ... لِسانًا تحدّى جميعَ العُصُرْ
وبَيْتَ العُروبَةِ في عِزَّةٍ ... ومأوى صغاري ندى أو عُمرْ
هي الضادُ لفظٌ رخيمٌ جليلٌ ... يُذيبُ القلوبَ يهزُّ الحجرْ
لسانٌ يَفوحُ شَذا عَرْفِهِ ... وفي النَّفسِ يَترُكُ أقْوى الأثَرْ

إشْكَالِيّةُ الضَّاد والظَّاءِ عِنْدَ اللُّغَوِيينَ العَرَبِ

د. محمد حراث

اهتمّ العُلماءُ قديمًا بحُروفِ العَربيّةِ عامّةً، وبحَرفَي الضّادِ والظّاءِ خاصَّةً، وقد يَكونُ سَبَبُ ذلك صُعُوبةَ نُطقِهما على منْ دَخَلَ الإسلامَ منْ غيرِ الأمَّةِ العَرَبيَّةِ، وهذه الصُّعوبةُ شَهِدَ بها العُلماءُ اللُّغويون وغيرُهم في كُتُبهم، يَقولُ الصَّاحِبُ بنُ عَبّاد (358هـ): "إذْ كانا حرفَين قدْ اعتاصَ مَعرفتُهما على عامَّةِ الكُتَّابِ؛ لتَقارُبِ أجناسِهما في المَسامِعِ، وإشْكالِ تَأسيسِ كُلِّ واحِدٍ مِنهُما، والتِباسِ حَقيقَةِ كِتابَتِهما". وكذلك يَقولُ ابنُ مَكّي الصِّقلِّيُّ (501هـ): "فأمّا العامَّةُ، وأكثرُ الخاصَّةِ، فلا يُفَرِّقُون بَينهُما في كِتابٍ ولا قُرآنٍ".

ويَقولُ ابنُ الجَزريِّ (833هــ): "والضَّادُ انفَرَدَ بالاستِطالَةِ، ولَيسَ في الحُرُوفِ ما يَعسُرُ على اللسانِ مثلُهُ؛ فإنّ ألسِنةَ النّاسِ فيهِ مُختلفةٌ، وقَلَّ مَنْ يُحسِنُهُ، فمِنهُم من يُخرِجُهُ ظاءً، ومنهُم منْ يَمزُجُهُ بالذَّالِ، ومِنهُم منْ يَجعَلُهُ لامًا مُفَخَّمَةً، ومِنهُم من يُشِمُّهُ الزَّايَ، وكلُّ ذلكَ لا يُجوزُ".

واكتَسَبَ حَرفُ الضّادِ أهمِّيَتَه -إلى جانبِ وُعورَةِ نُطقِهِ- أنَّهُ حرفٌ تَمتازُ بِهِ العَرَبيَّةُ عنْ غيرِها من اللُّغاتِ، ولا يُوجَدُ عندَ الأعاجِمِ في لُغاتِهِم، إلَّا القَليلُ، وبذلك سُمِّيَتِ العَرَبيَّةُ لغةَ الضَّادِ.

والظّاءُ كذلِكَ قِيلَ بأنَّهُ للعَرَبِ خاصَّةً، لا يُشارِكُهُم فيهِ أحَدٌ. وربّما اكتَسَبَ الحَرفانِ وُعورتَهما -والضَّادُ خاصَّةً- من صُعوبَةِ مَخرجِهما ودِقَّتِهِ، وفي ذلك يَقولُ ابنُ سِينَا في مَخْرَجِ الضَّادِ: "وأمّا الضَّادُ فإنَّها تَحدُثُ عن حَبْسٍ تَامٍّ عندَما يَتَقَوَّمُ مَوضِعُ الجيمِ، وتَقَعُ في الجُزءِ الأملَسِ، إذا أُطْلِقَ أُقيمَ في مَسلكِ الهَواءِ رُطوبةٌ واحِدةٌ أو رُطوباتٌ، تَتفقَّعُ من الهَواءِ الفاعِلِ الصَّوتِ، وتَمتدُّ عليها، فتَحبِسُهُ حَبسًا ثانِيًا، ثمّ تَنشقُّ وتتفقَّأُ، فيحدُثُ شَكلُ الضَّادِ". ثمّ يَقولُ عنْ مَخرَجِ الظَّاءِ: "وإنْ كانَ حَبسٌ كالإشْمامِ بجُزءٍ صَغيرٍ منْ طَرَفِ اللِّسانِ، وإمرارُ الهَواءِ المُطلقِ بعدَ الحَبسِ على سائِرِ سَطحِ اللِّسانِ على رُطوبَتِهِ، وحُفِّزَ له جملةً، سُمِعَ الظَّاءُ".

رسم تخيلي لـ ابن سينا

أجمَعَ العُلماءُ على أنّ هذا البابَ يَحتاجُ القَارِئُ إلَيهِ، ولا بُدَّ منْ مَعرِفَتِهِ. وقد عَمِلَ المُتقدِّمون فيه كُتُبًا نثراً ونظماً، ومنْ بينِ أهَمِّ الكُتُبِ الّتي دَرَسَتْ ظَاءاتِ القُرآنِ وضَاداتِهِ، نجدُ كِتابَ: (المِصبَاحِ في الفَرقِ بين الضّادِ والظّاءِ في القُرآنِ العَزيزِ نَظمًا ونَثرًا)، لأبي العبّاسِ أحمدَ بنِ حمَّادِ بنِ أبي القَاسِمِ الحَرّانيِّ، وبَنَى مؤلَّفَه على مقدِّمةٍ صَغيرةٍ جاء فيها: "نَظرتُ في أصُولِ ظَاءاتِ القُرآنِ، فوَجَدتُها في اثْنَينِ وثَلاثين أصلًا، وهذا أكثرُ ما جَاءَ منَ الأُصُولِ، فنَظَمتُها في أربَعَةِ أبياتٍ منَ الشِّعْرِ، وقَدَّمتُ قَبلَ الأربَعَةِ الحَاوِيَةِ للأُصُولِ عشرةَ أبياتٍ نَبَّهتُ فيها على مَخْرَجِ الضَّادِ ومَخرَجِ الظَّاءِ".

ولَعَلَّ منْ أهَمِّ الكُتُبِ القَديمَةِ التي رأيتُها أوْلَتْ اهتِمامًا لِمَسألَةِ الضَّادِ والظَّاءِ في العَرَبيَّةِ هي:

1. شرحُ أبياتِ الدَّاني الأرْبَعَةِ في أصُولِ ظاءاتِ القُرآنِ، لمُؤلِفٍ مَجهُولٍ.

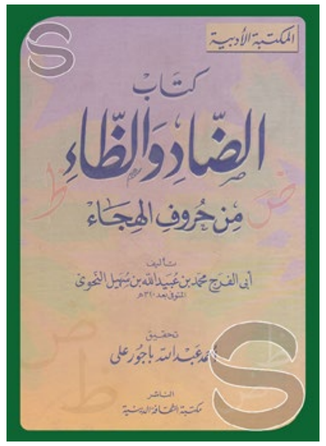

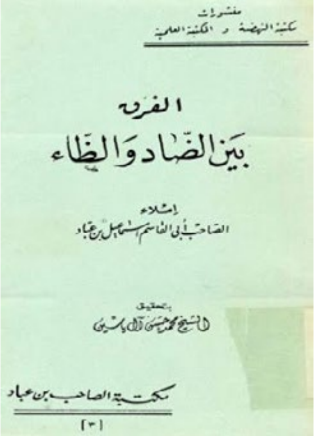

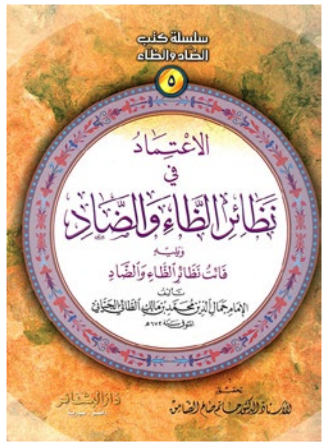

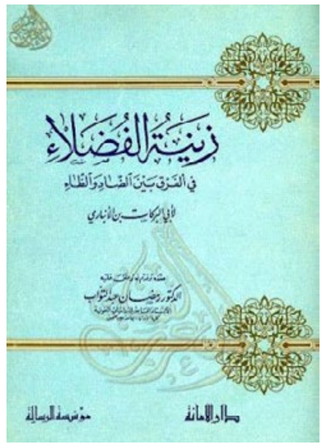

2. الإرصَادُ في شَرحِ المرصادِ الفَارقِ بين الظَّاءِ والضَّادِ، للجَعْبَري.

3. الاعتِمادُ في نظائِرِ الظَّاءِ والضَّادِ، لابنِ مالكٍ الطَّائيِّ.

4. الاقتِصادُ للفَرقِ بين الذَّالِ والضَّادِ والظَّاءِ، لأبي عبدِ اللهِ الدَّانيِّ.

5. زينَةُ الفُضَلاءِ في الفرقِ بين الضاد والظاء، للأنباريِّ أبي البَرَكاتِ.

6. الظَّاءاتُ في القُرآنِ الكَريمِ، لأبي عَمرٍو الدَّانِيِّ.

7. الفَرقُ بينَ الضَّادِ والظَّاءِ، للصَّاحِبِ بنِ عبَّاد.

8. الفَرقُ بينَ الحُروفِ الخَمسَةِ، لابنِ السَّيِّدِ البَطَلْيوسيِّ.

يقولُ المُستشرِقُ هُنري فليش: "ولقدْ كانَ العَربُ يَتباهَونَ بِنُطقِهمُ الخاصِّ لصَوتِ الضَّادِ، وهو عِبارةٌ عنْ صَوتٍ مُفخَّمٍ، يَحتمِلُ أنَّهُ كانَ ظاءً جَانبيَّةً؛ أي أنَّهُ كانَ يَجمعُ الظَّاءَ واللَّامَ في ظاهِرَةٍ واحِدَةٍ، وقد اختفى هَذَا الصَّوتُ، فلم يَعُدْ يُسمعُ في العالَمِ العَربيِّ، وأَصبحَ بِصِفَةٍ عامَّةٍ، إمَّا صَوتًا انفِجاريًا، وهو مُطبقُ الدَّالِ، وإمَّا صَوتًا أسنَانيًا هو الظَّاءُ".

وحرفُ الضَّادِ الَّذي نَنطقُهُ اليَومَ هو غيرُ حَرفِ الضَّادِ الذي كانَ يَنطقُهُ العَرَبُ قديمًا، كما وضَّحَ ذلك رَمضانُ عبدُ التَّوابِ، بناءً على وصفِ عُلماءِ النَّحوِ واللُّغَةِ والقِراءاتِ لمَخرجِ حَرفِ الضَّادِ وصِفَتِهِ. فالضَّادُ القديمَةُ ليسَ مخرجَها الأسنانُ واللّثةُ كما هي الحَالُ في الضَّادِ المُعاصرة، وإنّما منْ حافَّةِ اللّسانِ أو جَانبِهِ، وأنّها كانتْ صَوتًا احتكاكيًا رَخوًا، في حينِ أنّ الضَّادَ اليومَ انفجاريَّةٌ شَديدَةٌ؛ فقدْ عدّها الخَليلُ في حَيّزِ الجيمِ والشّينِ، وهما من الأصواتِ الغاريّةِ، التي تَخرجُ من الغَارِ، وهو سَقفُ الحَنَكِ الصَّلبِ، ويَقولُ سِيبويهِ كذلك: "ومنْ بينِ أوّلِ حافّةِ اللّسانِ وما يليهما مِنَ الأضراسِ مَخرجُ الضَّادِ".

يَتّضِحُ من هذه النُّصُوصِ الفَرقُ بين الضَّادِ الأصيلَةِ قديمًا، والضَّادِ التي نَنطُقُها حَديثًا، وأنّها كانت جانبيّةً، وليست أسنانيّةً لثويّةً، وكذلك لمْ تكنْ انفجَاريَّةً، بلْ احتكاكِيَّةً رخوَةً، بدليلِ قولِ سِيبويهِ في تَقسيمِ الحُرُوفِ: "ومنها الرِّخوَةُ وهي: الهَاءُ، والحَاءُ، والغينُ، والخَاءُ، والشّينُ، والصَّادُ، والضَّادُ...".

وعلى هذا، "فالضَّادُ الَّتي نَنطُقُها اليومَ لَيسَتْ هي الضَّادَ القَديمَةَ التي كانتْ عندَ العَرَبِ القُدَماءِ، وإنَّما هي تَطوُّرٌ عنها".

وعنْ هذا الفَرقِ يَقولُ المُستَشرِقُ الألمَانيُّ (برجشتراسر) بأنَّ الضَّادَ الآنَ "شَديدةٌ عندَ أكثرِ أهلِ المُدُنِ، وهي رِخوَةٌ، كما هي الآنَ عندَ أكثرِ أهلِ البَدْوِ، ومع ذلك، فليسَ لَفظُها البَدويُّ الحاضِرُ هو لَفظُها العَتيقُ نفسُهُ، وإنَّما مَخرَجُ الضَّادِ مِن حافَّةِ اللِّسانِ، ومنَ القُدماءِ من يقولُ: من جانبِهِ الأيسَرِ، ومنهُم من يَقولُ: من الأيمَنِ، ومنهُم من يَقولُ: من كِليهِما. فمَخرَجُها قَريبٌ منْ مَخْرَجِ اللَّامِ، الَّذي هو أيضًا منْ حافَّةِ اللِّسانِ، وذلكَ يَدُلُّ أنَّ الضَّادَ كانت تُشبِهُ اللَّامَ منْ بعضِ الوُجُوهِ، والفَرقُ بينهُما هو أنَّ الضَّادَ منَ الحُروفِ المُطبَقَةِ كالصَّادِ، وأنَّها منْ ذَواتِ الدَّويِّ، واللَّامُ غيرُ مُطبقَةٍ، صَوتيَّةٌ مَحضَةٌ، فالضَّادُ العَتيقَةُ حَرفٌ غَريبٌ جدًّا، غيرُ مَوجودٍ في لُغَةٍ منَ اللُّغاتِ إلَّا العَرَبيَّةِ، ولذلكَ كانُوا يَكْنُون عنِ العَرَبِ بالنَّاطِقين بالضَّادِ.

ويَرَى إبراهيمُ أنيس أنَّ الضَّادَ القَديمَةَ أقلُّ شِدّةً منَ الضَّادِ الحَديثَةِ، "إذْ مَعَها يَنفَصِلُ العُضوانُ المُكوِّنانِ للنُّطقِ انفِصالاً بَطيئًا نِسبيًّا، ترتَّبَ عليه أنْ حَلَّ مَحَلَّ الانفِجارِ الفُجائيِّ انفِجارٌ بَطيءٌ، نَلحَظُ معهُ مَرحلةَ انتِقالٍ بين هذا النَّوعِ من الأصواتِ، وما يَليهِ منْ صَوتٍ لَيِّنٍ، فإذا نُطِقَ بالضَّادِ القَديمَةِ، وقد وليَتْها فتحةٌ مثلاً، أحسَسْنا بمَرحلَةِ انتِقالٍ بينَ الصَّوتَينِ، تَمَيَّزَ فيها كلٌّ منهما تَمَيُّزًا كامِلاً". ويَظهرُ منْ هذا –كما يَرى إبراهيمُ أنيس- أنّ الضَّادَ القديمة كانت عَصِيَّةَ النُّطقِ على أهالي الأقْطارِ التي فَتَحَها العَرَبُ، أو حتَّى على بَعضِ القَبائِلِ العَرَبيَّةِ في شِبهِ الجَزيرةِ. وفي هذا يَرَى إبراهيمُ أنيس أنَّ الَّذي نستطيعُ تأكيدَهُ هنا، هو أنَّ الضَّادَ القَديمَةَ قد أصابَها بعضُ التَّطوُّرِ حتَّى صارتْ إلى ما نَعهَدُهُ فيها اليومَ، وأنّ هذا التَّطوُّرَ قد تَمَّ في القَرنِ الثَّامِنِ الهِجريِّ، عَصرِ ابنِ الجَزَريِّ.

وقد ذَكَرَ بعضُهم صَوتًا ذا صِلَةٍ بالضَّادِ، أسمَوْهُ: (الضَّادَ الضَّعيفَةَ)، وربّما قَصَدُوا ما عَنيناهُ بالضَّادِ القَديمَةِ، وذَكَرُوا كذلك صَوتًا آخَرَ ذا صِلَةٍ بالظَّاءِ أسمَوْهُ: (الظَّاءَ الَّتي كالثَّاءِ) وهي ظاءٌ فقدَتْ جَهرَها، فانقَلَبَتْ إلى ثاءٍ مُطبقَةٍ، وتظهرُ في كلمةِ (ظَالِم) –مثلا- إذا نَطَقناها (ثَالِم) بتَفخيمِ الثَّاءِ تَفخيمًا كَبيرًا. وأرَى أنَّ الأولى إنَّما هي الضَّادُ لكنْ تَطوّرَتْ في شَكلِها، وأمّا الثّانيةُ فإنّمَا هي انحِرافٌ عنِ الظَّاءِ وليس حرفًا آخَرَ.

ويَبْقَى أن نَقولَ في الأخيرِ، بأنَّ حَرفَي الضَّادِ والظَّاءِ قدْ نَالا اهتمامًا كَبيرًا منْ عُلماءِ اللّغَةِ العَرَبِ، وذلكَ لأهمّيَّةِ مَعرِفتِهما، وضَرُورَةِ إتقانِهما.

> يَقولُ الصَّاحبُ بنُ عبَّاد (358هـ): "إذْ كانا حرفَينِ قدْ اعتاصَ مَعرِفتُهما على عامَّةِ الكُتَّابِ؛ لتَقارُبِ أجناسِهما في المَسامِعِ، وإشْكالِ تَأسيسِ كُلِّ واحِدٍ منهُما، والتِباسِ حَقيقَةِ كِتابَتِهما"

قِراءَةٌ في كِتابِ الإمتاعِ والمُؤانَسَةِ لأبي حَيَّان التَّوحِيدِيِّ

د/ كريم الطيبي

يُعدًّ كِتابُ " الإمتاعِ والمُؤانَسَةِ " من أبرزِ الكُتُب المَوسُوعيّة في الأدَبِ القَديمِ الَّتي تَكشِفُ غِنَى التُّراثِ العَربيِّ وأصالَتَه؛ فهو مُسامراتٌ في مَجالاتٍ مَعرفيّةٍ مُختلفةٍ، وحُقولٍ عِلميّةٍ عَديدةٍ، ألقَى بها أبو حَيّان التّوحيديُّ في مَجلِسِ وَزيرِ الدَّولَةِ البُوَيهيّةِ عَبدِ اللهِ بنِ العارِضِ المَعروفِ بابن سَعدانَ. ويلمَسُ القَارئُ لهذا الكِتابِ تَنوّعَ المَادّةِ المَعرفيّةِ الغَنيّةِ منْ حِكاياتٍ وقِصَصٍ وأمثالٍ وحِكمٍ وطَرائفَ وأشعَارٍ ومُناظراتٍ ومُفاضلاتٍ ومُحاوراتٍ وأدعِيّةٍ ومُناجياتٍ...إلخ، وإلى جانبِ ما يَحويهِ هذا الكِتابُ بين دَفّتَيهِ من مَخزونٍ مَعرفيٍّ وافرٍ، نلمسُ صُورةً وَافيّةً لخُصوصِيّةِ العَصرِ الثّقافيّةِ والسِّياسيّةِ والاجتِماعيّةِ، ويُهمُّنا في هذه المَقالَةِ أنْ نَتَتبّعَ صُورةَ السُّلطةِ السِّياسيّةِ من خلال رَصدِ تَشُكُّلاتِ مُمثّلِ السُّلطةِ في الكتابِ وهو الوَزيرُ ابنُ سَعدَانَ؛ إذْ يَحفلُ كتابُ الإمتاعِ والمُؤانَسَةِ بتَدُخُّلاته؛ فهو يَحْضُرُ بوصْفِهِ المُخاطبَ الرَّئيسَ الَّذي تَوجَّهَ إليهِ التَّوحيديُّ بالخِطابِ في مُسامراتِهِ التي شَكّلَتْ مادَّةَ الكِتابِ، ولا يَكتَفي الوَزيرُ بالتَّلقِّي السِّلبيِّ للخِطابِ، بل إنَّه لا يَلْبَثُ أنْ يَتَحوَّلَ منْ مُنْفَعِلٍ إلى مُتكلِّم فاعلٍ يتَجَاوبُ مع المُحاوَراتِ المَعروضَةِ استِفْسارًا ونَقدًا وإشادةً، وهذه التَّدخُّلاتُ الَّتي أعربَ عنها هذا الوَزيرُ سَمَحَتْ بتَوطينِ صُورٍ عنه في صَفَحاتِ الكِتابِ؛ فقدْ بَرَزَ في صُورةِ المُثقَّفِ الَّذي يَمتلِكُ اطّلاعًا واسِعًا على مُختلِفِ القضايا، كما تَجَلّى في صُورةِ السِّياسِيِّ الذي لا يَتَوانَى عنِ الانشِغالِ بالهُمُومِ السِّياسيّةِ، وهذا ما سَنُوَضِّحُهُ.

1- صُورَةُ المُثَقَّفِ:

يُمثِّل الوزيرُ ابنُ سَعدانَ أنموذَجًا منَ النَّماذِجِ التي تُجسِّدُ انفِتاحَ مُؤسَّسةِ السُّلطَةِ على أدبِ المَجالِسِ بوَصفِها مُؤسّسةً ثَقافيَّةً مَعرِفِيَّةً في القَرنِ الرَّابعِ الهِجرِيِّ، وتُلقي لَيالِي التَّوحيدِيِّ الضّياءَ على مُجرياتِ هذهِ المَجالسِ، كما تُضيءُ لنا الجانِبَ الآخَرَ منْ هُوِّيَّةِ الوَزيرِ السِّياسيَّة، وهي الهُويَّةُ الثّقافيّةُ المَعرفيّةُ؛ فرسالةُ الإمتاعِ والمُؤانَسةِ تُبرزُ مُتكلّمًا شَغُوفًا بالمَعرفةِ وأحاديثِ المُثقَّفين والعُلماءِ؛ إذ إنّ الوزيرَ ملازمٌ للمَجلسِ، ومُداومٌ على طَرْحِ القَضايَا التي تُشغِلُهُ، مُتَطَلّعٌ إلى الإجاباتِ الَّتي تكبَحُ نهَمَهُ المَعرفيَّ، وحَريصٌ على مواكبةِ الحَراكِ الثّقافيّ الَّذي يَنشطُ في المَجالسِ الأخرَى، وهو ما يُبْرزُ قيمةَ الثَّقافةِ في هذا العَصرِ؛ إذ كانتِ الثَّقافةُ ضَرورةً تَفرِضُها طَبيعةُ المُجتمعِ العَربيِّ الَّذي شَهِدَ طفرةً علميَّةً كبيرةً إبّانئذ.

والمُلاحظُ أنَّ اهتِماماتِ الوَزيرِ لا تَميلُ إلى مَجالٍ مُحدَّدٍ، بل إنَّها تَنطَوي على تَنَوّعٍ واضِحٍ، كما أنّ الوَزيرَ لا يَفتأُ - في أحيانٍ كَثيرةٍ - يستسلمُ لنَهَمِهِ المعرفيِّ، فتنْقَدِحُ أسئِلةٌ جَمَّةٌ يُغرِقُ بها التَّوحيديَّ ويُطالبُه بالبَحثِ عن أجوِبتِها ويُسجّلُها له في رُقعةٍ، كما يؤكِّدُهُ هذا المَلفوظُ: "ما النَّفْسُ؟ وَمَا كمَالُها؟ وَمَا الَّذِي اسْتَفَادَتْه من هذا المكانِ؟ وَبِأَيِّ شَيْءٍ بَايَنَتِ الرُّوحَ؟ ومَا الرُّوحُ؟ وَمَا صِفَتُه؟ وَمَا مَنْفَعَتُهُ؟ وما المانِعُ مِنْ أنْ تَكُونَ النَّفسُ جِسْمًا أوْ عَرَضًا أو هما؟ وَهَلْ تَبْقَى؟..."[1]، ويُعَبِّرُ الوَزيرُ عَنْ أهميةِ هَذِهِ الأسئلةِ قائِلًا: "فإنَّ هَذا وَمَا أَشْبَهَهُ شَاغِلٌ لِقَلْبي، وَجَاثمٌ في صَدْري، وَمُعْتَرِضٌ بَيْنَ نَفْسِي وَفِكْري، وَمَا أُحِبُّ أَنْ أَبُوحَ بِهِ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَقَدْ بَيَّنْتُهُ في هَذِهِ الرُّقْعَةِ"[2].

وتكشفُ ملفوظاتٌ عديدةٌ تمكّنَ الوزيرِ من الكفاياتِ التواصليَّة[3]، من ذلك هذا الملفوظُ الَّذي توقَّفنا عندهُ سابقًا:

1- أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، تحقيق: أحمد أمين وأحمد الزين، منشورات المكتبة العصرية، بيروت صيدا، ج3، ص: 106.

2- نفسه، ص: 107.

3- تميّز أروكيوني بين أربع كفاءات للمتكلّم:
- الكفاءة الألسنية اللغوية وتُعنى بالعناصر الدالة النصية والسياقية الحالية النصية.
- الكفاءة الموسوعية وهي تمثُل باعتبارها خزّانًا رحبًا يضمّ معلومات خارجية تعبيرية أدائية تتناول السياق، أو باعتبارها مجموعة معارف ومعتقدات.
- الكفاءة المنطقية المتمثلة في الآليات التداولية التي يستعملها المتكلم في اللغة الطبيعية.
- الكفاءة البلاغية التداولية المتمثلة في قوانين الخطاب.
- انظر الفصل الرابع "كفاءات المتكلّمين"، من كتابها:

"لِمَ لا تداخلُ صاحبَ ديوانٍ ولِمَ ترضى لنفسكَ بهذا اللَّبوس؟ فقلتُ: أنا رجلٌ حبّ السلامةِ غالبٌ عليّ، والقناعةُ بالطفيفِ محبوبةٌ عندي. فقال: كنَّيْتَ عنِ الكَسَلِ بحُبِّ السَّلامَةِ، وَعَنِ الفُسُولَةِ بالرِّضا باليسيرِ"(4). يُظْهِرُ تعليقُ الوزيرِ عن جوابِ التّوحيديّ قدرةً تأويليّةً نافذةً، إذ تفطّنَ إلى مقاصدِ أبي حيّان الَّذي ظلَّ يطمحُ لتحقيق حلْمٍ وحيدٍ هو الارتماءُ في أحضانِ السُّلْطَةِ لخدمةِ الوزراءِ وضَمَانِ حياةٍ هنيئَةٍ. كما نتلمّسُ المهاراتِ الحواريَّةَ - الَّتي تكشفُ موسوعيَّةَ الوزيرِ وإلمامَه بأبجديَّاتِ التَّواصلِ - في تعقيبِهِ عن اعتذارِ التَّوحيدي بعدمِ استطاعة الحديثِ عن بعضِ الشَّخصيَّاتِ.

يتَّضحُ - من خِلالِ ما سَبَقَ - أنَّ الوَزيرَ ابنَ سَعدانَ يَضطَلِعُ، في كتاب "الإمتاعِ والمُؤانَسَةِ"بدَورَين يَتَقاطَعان ويَتَداخَلان؛ فهو المُخاطَبُ الَّذي يتوجَّهُ إليه المُتكلِّمُ/ التَّوحيديُّ بالخِطابِ المُسَامراتيّ، وهو نفسُهُ المُتكلّمُ الذي يَتَدخَّلُ بين الحِينِ والآخَرِ. وقد سَمَحَتِ الآثارُ الكَلاميَّةُ التي تصدُرُ عنه بتَقديمِ صُورةٍ عنهُ، فقد تَجلَّى في صُورةِ المُثقَّفِ الحَريصِ على التَّباحُثِ في قَضايا الفِكْرِ والمَعرفةِ، والإنسانِ الشَّغوفِ بتَنميةِ مَداركِهِ وأفكارِهِ. بيدَ أنَّ صُورةَ المُثقّفِ هذه، لمْ تُغطِّ الجانِبَ الآخَرَ من ابنِ سَعدانَ، وهو الجانِبُ السِّياسِيُّ.

2- صُورَةُ السِّياسِيِّ:

تَظهرُ شخصيَّةُ السِّياسِيِّ واضحةً في ملفوظاتٍ عَديدةٍ؛ فالوَزيرُ الذي يَستَثمِرُ المثقَّفِين ويَرتَوِي منْ عِلمِهم ومَعارِفِهم، لمْ يَفُتْه أنْ يَنتَهزَ الفُرصةَ لإحلالِ التَّوحيديِّ مُخبرًا يُخبِره ويُطلِعُه على مُجرياتِ المَجالسِ الأخرَى، ويُنْبِئُه بأخْبارِ العامَّةِ، ويُحدِّثُه عن بَعضِ الشَّخصياتِ المُثيرةِ للشُّكوكِ. إذْ تُبرزُ أسئلَةٌ عَديدةٌ في اللَّيالي، وتُفصِحُ شواهِدُ كثيرةٌ عن المَلمَحِ السِّياسيّ الذي يُميِّزُ شَخصيَّةَ الوَزير؛ فهو يَبدُو مُطّلِعًا بما يَجولُ في وِزارتِهِ، وحَريصًا على تَتَبُّعِ أخبارِ المُقرَّبينَ منه، ولعلَّ التّوحيديَّ واحِدٌ من الَّذين أحصَى عَليهِم حركاتِهِ وسَكَنَاتِهِ، لِنَتَأمّلْ هذا المَلفُوظَ: "إنّي أُريدُ أنْ أسْألَكَ عن ابْنِ عبَّاد، فقد انْتَجَعْتَه وخَبِرتَه وحَضَرْتَ مَجلِسَهُ، وعن أَخْلاقِهِ وَمَذْهِبِهِ وَعَادَتِه، وعَنْ عِلْمِهِ وَبَلاغَتِهِ، وَغَالبِ ما هو عَلَيهِ، ومَغْلُوبِ ما لَدَيهِ، فما أظُنُّ أنِّي أجدُ مثلكَ في الخَبَرِ عنْهُ، والوصْفِ له"(5).

ويقول أيضًا: "فقد بَلَغَني أنَّكَ جارُهُ ومُعَاشِرُه، وَلَصِيقُه ومُلازمُهُ وقَافي خَطْوِه وَأَثَرِهِ، وَحَافِظُ غَايَةِ خُبْرِهِ"(6). وفي ملفوظ آخر جاء على لسانه: "فقَدْ بَلَغَني أنَّكَ تَغْشَاهُ وتجلِسُ إليه، وَتُكْثِرُ عِنْدَهُ، وَتُوَرِّقُ لَهُ، وَلَك معه نوادرُ مُضْحِكَةٌ، وَبَوَادِرُ مُعْجِبَةٌ. وَمَنْ طالتْ عِشْرَتُه لإنسانٍ صَدَقَتْ خِبْرَتُهُ به، وانْكَشَفَ أَمْرُهُ لَه، وأمْكَنَ اطِّلاعُه على مُسْتَكَنّ رَأْيِه وخَافي مَذْهَبِهِ، وَعَوِيصِ طَرِيقَتِهِ"(7).

تُبيّن هذه الشَّواهدُ درايةَ الوَزيرِ ومَعرفتَهُ الدَّقيقَةَ بالتَّوحيديِّ وبتفاصيلِ حَياتِهِ ومُجالِسِيهِ وأصدقائِهِ وجيرانِهِ، كما تَكشفُ لنا - من جِهةٍ أخرى - صُورةَ السِّياسيِّ اليَقِظِ، والنَّبيهِ الَّذي لا يدَّخِرُ جَهدًا في تتبّعِ أحوالِ المُجتمعِ ومُراقبةِ الشَّخصياتِ المُثيرةِ للشُّكوكِ والمَخاوِفِ.

كما تكشِفُ هذه التَّسَاؤلاتُ جُنوحَ الوَزيرِ إلى تَقصِّي الحَقائقِ المُرتبطَةِ بالشَّخصيَّاتِ التي تُثيرُ حَفيظتَه وتُقْلِقُ راحتَهُ، وإن كانتْ استِفساراتُ الوَزيرِ لا طَائلَ يُرجَى منها من النَّاحيَّةِ المَعرفيَّةِ النَّظريَّة، إلا أنَّها في غاية الأهمّية لوزيرٍ يُديرُ شُؤونَ السُّلطةِ، ويسهَرُ على الحِفاظِ على استِقرارِ حُكْمِهِ؛ فهذه الإضَاءاتُ تصوِّرُ له الواقِعَ الثَّقافيَّ والاجتِماعيّ، وتقرِّبُ له اهتِماماتِ العُلماءِ في المَجالسِ، كما تبصّرُهُ بأخْبارِ العَامَّةِ وأحْوالِها، ممَّا يجعلُ الوَزيرَ على اطِّلاعٍ دائمٍ بمُجرياتِ دولته.

ومنْ خِلالِ ما سَبَقَ، نَستنتِجُ أنَّ الوَزيرَ ابنَ سَعدانَ، تَجلَّى في صُورَتَينِ اثنتَينِ بَصَمَتَا تَفاعلاتِه اللُّغَويّةَ في متنِ كِتابِ الإمتَاعِ والمُؤانَسَةِ؛ فقدْ بَدَا شَغوفًا بالمَعرفةِ مُتَطلِّعًا إلى تَكوينِ زادٍ مَعرفيٍّ يَشمَلُ العُلومَ على اختِلافِها وتَنَوُّعِها. وبالمُقابلِ طَفَتِ المُيولاتُ السِّياسِيّةُ لَدَى هذِهِ الشَّخصِيّةِ؛ إذْ سَخَّرَتِ المَجلسَ العلميَّ منْ جِهَةٍ، ومعرفةَ التَّوحيديِّ الجيِّدةَ بواقِعِ الحَياةِ الاجتِماعيَّةِ السَّائدَةِ، وكذا تَقرّبَه من بعضِ العُلماءِ والشَّخصيَّاتِ منْ جِهَةٍ أخرَى، للاطِّلاعِ على ما يَحْدُثُ، ومن ثَمَّ يُمكنُ القَولُ – مع أحدِ الباحثين- إنَّ "حاجَةَ ابنِ سَعدانَ إلى التَّوحيديِّ كانتْ حاجَةً مُزدَوَجَةً، فقد أرادَ – من وِجهَةٍ أولى- تَوظيفَه في أغراضٍ تَجسُّسيةٍ للتَّعرُّفِ على ما يُدبّرُهُ له أعداؤُهُ، ومنْ جِهَةٍ ثانِيةٍ كان يَسعَى إلى إرواءِ ظَمَئِهِ إلى المَعرفَةِ"(8).

أبو حيان التوحيدي

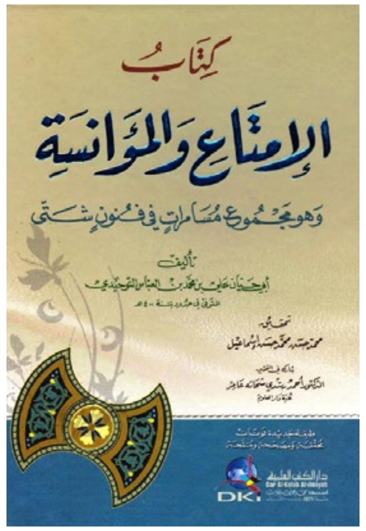

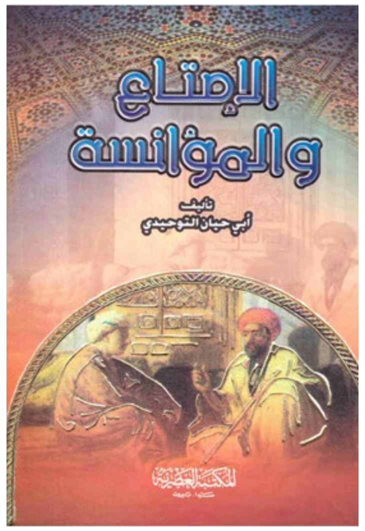

"المضمر"، ترجمة: ريتا خاطر، المنظمة العربية للترجمة- بيروت، الطبعة الأولى، سنة 2008م، ص:283 وما بعدها. وقد قدّم باشا العيادي تكثيفا مفيدا لهذه الكفاءات الأربعة، انظر كتابه: فن المناظرة في الأدب العربي، ص: 399-400.

4- الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص: 104.

5- الإمتاع والمؤانسة، ج1، ص: 102.
6- نفسه، ص: 102.
7- نفسه، ج2، ص:102.

8- نفسه، ص:101.

محمد الهادي سال

يا أيّها الحاكمُ سلطان

أَبْلِغْ لملْهِمتي -يا منْطِقي- خَبَري ... لِتُسعفَ الرّوحَ مِنْ حَمّارةِ السَّقَرِ
قَدْ أَحْدَقَتْ بالِحجَا مِنْ غيرِ معرفةٍ ... كهالةِ الحُسْنِ قدْ دارتْ على القَمَرِ
و دَلَّهتْني كَمجْنونٍ مَفاتِنُها ... وجرَّعَتْنِي كؤُوسَ الذُّلِّ والسّهَرِ
أَمُرُّ مَرَّ خَليٍّ دونَها مَضَضٌ ... بلْ صِرتُ في مَرِّهَا أعْمًى بلا بَصَر
ما كنْتُ أَعرفُ أنَّ العِشقَ سُلْطَتُهُ ... تُرْدي القَويَّ بِلا مُوسى ولا إِبَر
وما رأَيْتُ جَمالًا فيهِ قَدْ بُعِثتْ ... رَسائِلُ القلْبِ والأَزْهارُ في صُوَر
حَوراءُ كالرِّئْمِ ، لَيلًا عنْدَ طَلْعَتِها ... تُخفِي الضِّياءَ كأَكْمامٍ لَدى الثَّمَر
اِرْكبْ مَطيَّكَ وَانْظُرْ ما ذَكَرْتَ وما ... قدْ كَلَّ عنْ وصْفِهِ حِبري كذا سَفَري
تُريكَ أَلحاظُها سِحْرًا يَرِفُّ بِهَا ... والوَجْهُ يُنْسيكَ حُسْنَ البَدْرِ في سَحَر
كأَنَّها صورةٌ من جَنّةٍ نَزَلتْ ... في هَذهِ الأرْضِ لِلسودانِ والغُرَر
ثَلاثةٌ عنْدَها يَسْبُونَ قافِيَتي ... عطْفٌ ، عَفافٌ، وأخْلاقٌ منَ الدُّرَر
سَلِ اليَراعَ إذا ما كُنْتَ تَجْهلُها ... يُخْبِرْكَ جَوهرُها في عَنْ أَحْسنِ الصُّوَر
هيَ الّتي خَطفتْ قَلبي بِنَظرتِها ... وصيَّرتْنيَ كَالعَنْقَاءِ في البَشَرِ
حتّى بَدتْ نَفحةً مِمَّن بهِ ازْدَهرتْ ... راياتُ شارِقةٍ بالعِلْمِ والفِكَرِ
ظلَّتْ بهِ مَوْطنًا تُرْضي حُكومَتَه ... فكيفَ لا وهْوَ صفّاها من الكدَر

لا يُظْلَمُ النَّاسُ فيها وَالغريبُ بها   مُنَعَّمُ العَيْشِ لا يَخْشَى مِنَ الضَّرَرِ
والحالُ في سَدَدٍ، والعَقْلُ في رَشَدٍ   والعيشُ في رَغَدٍ ، والحقُّ في الخبَرِ
إنْ قابَلَ المرْءُ في تَرْحالِه تَعَبًا   فإنَّ فيها مَراحَ الرّوحِ لا الضَّجَر
كلُّ الثّقافاتِ في طيّاتِها "زُحَلٌ"   وَطَلْعَةُ البَدْرِ تُغْني عنْ سَنَا الشَّرَرِ
منْ فَيضِ "سلطانَ" مَنْ عَمَّتْ فَواضلُهُ   أضْحى المُحالُ كَخَيطٍ في يدِ الغَرَر
لَوْلاهُ كانَ غذاءُ العقْلِ مُنْقَطِعًا   عَنْ ساحةِ الفَهْمِ في الآصَالِ وَالبُكَرِ
قدْ وطَّدَ المجْدَ..عينُ العَزْمِ شاهِدَةٌ   وأكْرَمَ القَلْبَ بالإخلاصِ والفِكَر
والأرضُ تهْتزُّ مِن إنجَازِهِ طَرَبًا   كذا السّماءُ تبُثُّ المجْدَ بالقمَر
يا أيُّها الحاكمُ المغْوارُ حُقَّ لكمْ   حَرْفي وأعْظَمُ ما عنْدي منَ الأَثَر
إنَّ الطُّلولَ الَّتي أَحْييتَ سِلّتَها   قدْ أفْرَحتْ كلَّ مَنْ يسْعى إلى النَّظَر
منْها كإحْياءِ آثارِ الرِّجالِ لكيْ   يعودَ في العَصْرِ ما في سالفِ العُصُر
فَكَكْتَ عنّا قُيودَ الجهْلِ ثمَّ   كَسَوْتَنَا رِداءَ الهدى والحقِّ في الصِّغَرِ
فَأَصْبَحتْ عَلَمًا تَسْمُو النُّفُوسُ بِهِ   كالشمسِ مشرقةً في البَدوِ وَالحَضَرِ
أَكْرِمْ بِكلِّ خيالٍ صارَ متَّضِحًا   يا عَذْبَ زمْزَمِهِ يا طيِّبَ الثمَر
لا يَشكرُ اللّهَ ذا النَّعْماءِ أجمَعِها   مَنْ لم يكنْ لِجميلِ النّاسِ ذا شُكُر
مِنْ ذاكَ يا صاحِبَ الخيْراتِ أَشْكُرُكمْ   شكرًا يُحلِّيكَ بالمقْدارِ والقَدَر
لو كانَ عنْديَ غيْرُ الشِّعْرِ جِئْتُ بهِ   وَالوُرْقُ تَسْجَعُ في بُسْتَانِهِ النَّضِرِ
كمْ أطْرَبَ النّاسَ مَسْرُورًا وَمُكْتَئِبًا   وكمْ سَقَى مِنْ كُؤُوسِ الأنْسِ والسَّمَر
اللّهُ يَجزيكُمُ خيْرًا ويحفَظُكمْ   حِفْظَ المثاني وحفْظَ الآيِ والسُّوَر
وَعِشْ سعيدًا بِمَا قَدَّمْتَ من عمل   مَا قَالَ مُبْتَهِلٌ : رَبَّاهُ يَا وَزَرِي !

جُذورُ العَداءِ للعَربيّةِ الفُصحَى والدَّعْـوةِ إلـى العَامّيّـةِ

ممدوح فرّاج النّابي

لمْ تَخفُتْ وَتيرةُ الحَربِ الهَوجاءِ لمــُحاربة اللُّغةِ العربيّةِ الفَصيحةِ في أيّ وقتٍ من الأوقاتِ، بلْ تَنْشَطُ وتُبْعَثُ بَعثًا بوَصفِها نوعًا من تَجديدِ الدَّعوةِ أحيانًا، والتَّذكيرِ بأنَّ أصحَابَها ومُؤازِريهم يَسيرُون على الدَّرْبِ نفسِهِ، في دَعْوتِهم إلى إلْغاءِ العربيَّةِ الفَصيحةِ، مُقابل رَفْع شِعارِ العاميّةِ أوِ اللّهجاتِ المَحليّةِ بَديلًا عنها، بِحُجَجٍ مُخْتَلِفَة، أَيْسَرِها أنَّ العربيّةَ الفَصيحةَ عَاجِزةٌ عنِ التَّعبيرِ عن مُتطلَّباتِ العَصْرِ، وفي لُغةٍ أكثرَ حِدّةً أنّها كانتْ عائقًا أو عَقَبةً كَؤودًا أمام تقدّمِ العِلمِ والابتِكارِ، في مُخالَفَةٍ لِحَقيقةِ طَبيعَةِ اللُّغَةِ وتَطوُّرِها وَقُدْرَتِهَا على اسْتيعابِ كَافّة العُلومِ، على نحوِ ما عبّر شاعرُ النّيل حافظُ إبراهيم:

وسِعتُ كِتابَ اللهِ لَفظًا وغايةً
وما ضِقْتُ عن آيٍ بهِ وعِظاتِ
فكيف أضِيقُ اليَومَ عن وَصْفِ آلةٍ
وتَنْسيقِ أسماءٍ لمُخْتَرَعاتِ

تَتكرّرُ هذه المُحاولاتُ بين الفَيْنةِ والأخرَى، وهُو ما يدعُو إلى التّساؤلِ: مِن أينَ استَمدّتْ هذه الدّعوةُ جُذورَها؟ وما مَصدرُها؟ هل مَصدرُها أصحابُ اللُّغةِ أنفُسُهم، أم كان للاستِشراقِ الدّورُ المُهمُّ في هذه الدّعوةِ، وإِذْكَائها حتّى تَضطرِمَ النّيرانُ؟

بُذورُ الدّعوَةِ

المتأمِّلُ في السّياقاتِ الثّقافيّةِ والسّياسيّةِ الّتي نَشَأت خِلالَها مثلُ هذِهِ الدّعواتِ، يكتَشفُ أنّها - في حَقيقةِ الأمرِ - تتجَاوزُ أسماءَ كلويس عَوَض أو سَعيد عَقل وصُولاً إلى شرَيف الشّوباشيّ وكتابِه المُثيرِ "لتحيّا اللّغةُ العَربيّةُ ويسقُطْ سِيبويهِ"، بل تَمتدُّ جُذورُ هذِهِ الدّعوةِ الهدّامَةِ أولاً إلى الأساتذةِ المِصريين الّذين دَرّسُوا العَربيّةَ للطلّابِ الأجانبِ في بلادِ الغَربِ، ودَعَوا إلى العاميّةِ بوَصفِها نوعًا مِنَ التّسهيلِ على الطُّلابِ الأجانِبِ لدِراسةِ العَربيّةِ، وأصْدرُوا في هذا الشّأنِ مُؤلفاتٍ تُعزّزُ وِجْهاتِ نَظرِهم الّتي رَوّجُوا لها بكتاباتِهِم، ومِنْ أشْهَرِ مَن فعلَ هذا مُحمّد عيّاد الطّنطاويّ (1810 – 1861)، الذي كان يُدرِّسُ العربيّةَ ولَهجاتِها في جامعةِ (بطرسبرج) برُوسِيَا، وقد ألّفَ في هذا الشّأنِ كِتابًا أسْمَاه "أحسنُ النُّخَبِ في مِعرفة لِسانِ العَرَبِ" (طُبع في مدينة لبسيا، في مطبعة ولهم فوغل 1294 ه(، وذَكَرَ في مُقدّمَةِ الكِتابِ أنّ الدَّوافعَ الّتي حَملتهُ على التّأليفِ هي الرّغبَةُ في تَسهيلِ دِراسةِ العامِيّةِ في مِصرَ على الطُّلابِ الأجانِبِ الرّاغبينَ في دراسَتِها، وكذلِكَ ما أرجَعَه إلى نُفوذِ العامِيّةِ في مِصرَ، فصَارَ عامّةُ النّاسِ وخاصّتُهم لا يَتحدَّثُون إلّا بِهَا، كما أنّ العُلماءَ يَستخدِمونَها في شَرحِ مُؤلفاتِهم المَكتوبةِ باللُّغةِ العَربيّةِ الفَصيحةِ.

والكِتابُ الثّاني مِن تَأليفِ ميخَائِيل الصّبَاغ بعنوان (الرِّسَالة التّامّة في كلامِ العامّةِ والمَناهجِ في أحوَالِ الكَلامِ الدّارِجِ(، وقد ألّفَهُ عام 1812، إلّا أنّ طِباعتَه تأخّرَتْ كَثيرًا؛ حَيثُ صَدَرَ في عام 1886 (في ستراسبورج)، ويَتطرّقُ في مُقدّمتِه إلى الاختِلافاتِ بين العَامِيّةِ والعَربيّةِ الفَصيحةِ، مُعرِّجًا على الدّافِعِ الّذِي دَفعَه لِتأليفِ الكِتابِ، ويَتمثّلُ في "رَغبةِ أهلِ هذِهِ البِلادِ المُنَصّبين لِتعليمِ هذِهِ اللّغَةِ (أي العَاميّة(أنْ يَضَعَ لهم قانونًا يُوضّحُ الفَرقَ بين تلك اللُّغةِ المُدوّنةِ في الكُتُب، وبين هذِهِ الدّارِجَة بين العامّةِ". دُونَ أنْ يَتناسَى الصُّعوباتِ الّتي صادَفَته عندَ التّأليفِ والمَنهجَ الّذي سارَ عَليهِ.

العَامِيّةُ والمُستَشرِقُون

الاتّجَاهُ الثّاني في التّرويجِ للعَامِيّةِ كانَ بِتأثيرِ المُستَشرقين الّذِين قَدِموا إلى مِصرَ منْ بِلادِهم في مَهامٍّ عِلميّةٍ، إلّا أنّهُم تَركُوا أعمَالَهم الحَقيقيّةَ وراحُوا يُحرّضُون على ما يَعمَلُ على فُرقةِ الأمّةِ، ويُسهمُ في تَفتيتِ رَوابِطها. تَبدأُ أُولَى هذِهِ المُحاولاتِ مع المُستشرقِ الألمانيّ "ولهلم سبيتا" (1818 - 1883)، الّذي تَخرّجَ في قِسمِ اللُّغاتِ الشّرقيّةِ بجامِعَةِ (ليبزج)، ونالَ دَرجةَ الدُكتورَاه عام 1875، عن رِسالةِ "تاريخِ أبي الحَسَنِ الأشعَرِيِّ ومَذهَبِه"، وكانَ يَعملُ في مِصرَ في أواخِرِ القَرنِ التّاسعِ عَشَرَ مُديرًا لدارِ الكُتبِ المَصريّةِ، وأثناءَ مُدّةِ عَملِه ألّفَ

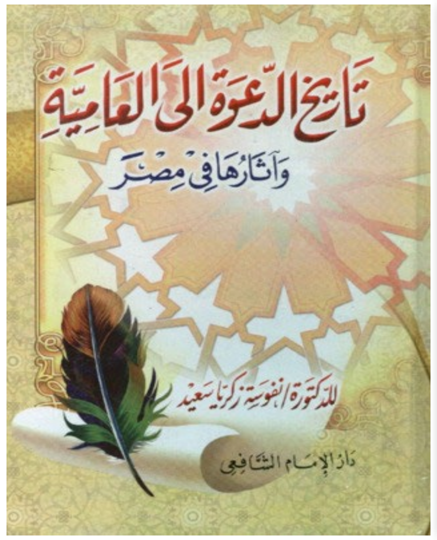

كِتابًا بعُنوان "قَواعِد اللُّغةِ العَربيّةِ في مِصرَ " عام 1880 وكَتَبه باللّغةِ الألمانيّةِ، وفي سَبيلِ الوُصولِ إلى هَدفِه عاش في أحَدِ الأحياءِ الشّعبيّةِ "لِكَي يَستقيَ اللّغةَ العاميّةَ مِنْ مَنابِعها الأصليّةِ، وأنّه كانَ يُدوّنُ ما كانَ يَسمعُه في كُمّ قَميصه، خَوفًا مِن أن يَراهُ أحدُ المُتكلّمينَ فيفقدَ طبيعتَه وحُريتَهُ في الكَلام"، والغَريبُ أنّه في مُقدّمةِ الكِتابِ يُشير إلى أنّهُ لمْ يَتمكّنْ مِنَ الإلمامِ بالعَاميّةِ المَصريّةِ "لتعدّدِ لَهجاتِها واختِلافِها من بلدٍ إلى بلدٍ، ومِن حَيٍّ إلى حَيٍّ"، وهو الأمرُ الّذي جَعلَ كتابَه يَقْتَصِرُ على لَهْجةِ أَهْلِ القاهِرةِ.

ومِنْ هذا الكِتابِ " قَواعِد اللُّغةِ العَربيّةِ" انبَثَقت الدّعوةُ إلى اتّخاذِ العاميّةِ لُغةً أدبيّةً، بِحُجّةِ صُعوبةِ العربيّةِ الفُصحَى، وفي هذا الكِتابِ أيضًا وضعَ أوّلَ اقتراحٍ لاتّخاذِ الحُروفِ اللاتينيّةِ لِكتابةِ العاميّةِ، وقدْ وَجدَتْ لها سَبيلاً مَعَ كَمالَ أتاتُورك في تُركيا الّذي قامَ باستبدالِ الحُروفِ اللّاتينيّةِ بالعَربيّةِ، ثمّ سَعِيد عَقْل في لُبنانَ الّذي كَتبَ ديوانَه (يارا) بالحُروفِ اللّاتينيّةِ.

ويُشيرُ المُستشرِقُ "سبيتا" إلى هَدفِه من كتابِه قائلاً: "وأخِيرًا سَأُجازفُ بالتّصريحِ عنِ الأمَلِ الّذي راوَدَني على الدّوامِ طِيلةَ مُدّةِ جَمعِ هذا الكِتابِ، وهُو أمَلٌ يَتعلّقُ بِمصرَ نَفسِها، ويَمَسُّ أمرًا بالنّسبةِ إليها وإلى شَعبِها، يَكادُ يَكونُ مَسألةَ حَياةٍ أو مَوتٍ، فَكُلُّ مَن عاشَ مُدّةً طَويلةً، في بلادٍ تَتكلّمُ العَربيّةَ، يَعرفُ إلى أيِّ حَدٍّ تتأثّرُ كُلُّ نَواحِي النّشاطِ فيها بسَببِ الاختِلافِ الواسِعِ بينَ لُغةِ الحَديثِ ولُغةِ الكِتابةِ، ولا يُمكنُ التّفكيرُ في ثَقافةٍ شَعبيّةٍ، إذْ كيفَ يُمْكِنُ في مُدّةِ التّعليمِ الابتِدائيّ القَصيرِ أنْ يَحْصُلَ المَرءُ على نِصْفِ مَعرفةٍ بِلُغةٍ صَعْبةٍ جدًّا، كاللّغةِ العَربيّةِ الفُصحَى، بَينَما يُعاني الشّبابُ في المَدارسِ الثّانويّةِ عَذابَ دِراسَتِها خِلالَ سَنواتٍ عدّةٍ دُونَ أنْ يَصِلُوا إلى شَيءٍ، اللهمَّ إلّا نَتائجَ لا تُرضِي بَتاتًا. وطَريقةُ الكِتابةِ العَقيمةُ، أيْ: بِحُروفِ الهِجاءِ المعقَّدةِ، يَقعُ عليها بالطّبعِ أكْبرُ قِسطٍ مِن اللّوْمِ في كلِّ هَذَا ".

ثمّ تَلَتْ دَعوةَ سبيتا دَعواتُ مُستشرِقينَ آخَرين؛ منها دعوةُ المُستشرِقِ الألمانيِّ "كارل فولرس"، الّذِي وَضَعَ في عام 1890 كِتابَ "اللّهجَةِ العَربيّةِ الحَديثةِ في مِصرَ"، وترجَمَه إلى الإنجليزيّةِ عام 1895، وهُو كما تَقولُ نَفّوسة زَكريا في كتابِها – تاريخُ الدّعوةِ إلى العَاميّةِ وآثارِها في مِصرَ – انتَهَجَ نَهجَ "سبيتا" فاستَنبطَ حُروفًا لاتينيّةً لِكتابةِ العَاميّةِ، ودَرَسَ قَواعِدَها وأوْرَدَ كَثيرًا مِن نُصوصِها".

العَربيّةُ المَحكيّةُ

أعقَبَ ذلك كِتابُ "العَربيّةِ المَحكيّةِ في مِصرَ" عام 1901، لسلدن ولمور، وهُو قَاضٍ إنجليزيٌّ، وسَارَ فيه على نَهجِ سبيتا في دِراسةِ العاميّةِ المَصريّةِ، سَواءٌ في دِراسةِ قَواعِدِها وجَمعِ نُصوصِها، أمْ في الدّعوةِ إلى كِتابَتِها بحُروفٍ لاتينيّةٍ، واتّخاذِها لُغةً أدَبيّةً، وكانت أهدَافُه في التّرويجِ للعَاميّةِ تَتّسِقُ مَعَ أهْدافِ الاستِعمارِ البَريطانيِّ، بِفَصلِ المُسلمين والعَرَبِ عنْ ماضِيهِم وتَفْتيتِ وحْدَتِهم اللُّغويّةِ بالقَضاءِ على العَربيّةِ الفُصحَى. وفي مقدمَتِهِ امْتَدَحَ كتابَ سبيتا، وعَدَّهُ الكِتابَ الرّائدَ في هذَا المَجالِ، وأنَّ كلَّ مَنْ جاءَ بَعدَه مَدينٌ له في دراسَتِه لِلَهَجاتِ العَربيّةِ المَحليّةِ. وكرّرَ ما ذكرَهُ السّابقونَ بشأنِ صُعوبةِ العَربيّةِ الفُصحَى.

سعيد عقل

لويس عوض

شريف الشوباشي

وهُناكَ أيْضًا مُحاولةُ المُستشرِقِ الإنجليزيِّ "وليم ولكوكس" وكانَ يَعملُ مُهندسًا للرّيِّ في الحُكومةِ المَصريّةِ، وهذا لمْ يَكتَفِ في مُحاولتِهِ بتَأكيدِ الأَخْذِ بالعَاميّةِ، بلْ قامَ بشَنِّ حَرْبٍ شَعواءَ على اللُّغَةِ العَربيّةِ الفَصيحَةِ، مِنْ خِلالِ مُحاضرةٍ بعُنوانِ "لِمَ لمْ تُوجَد قوّةُ الاختراعِ لَدَى المَصريين الآنَ"، ثمّ أتْبَعها برسالةٍ نَشرَها بالإنجليزيّةِ عام 1893، بعنوانِ "سُوريا ومِصرُ وشَمالُ إفريقيّةَ ومالطا تتكلّمُ البُونيّةَ لا العَربيّةَ"، وخِلالها تَنبّأَ بمَوتِ العَربيّةِ الفَصيحَةِ، وعَدَّ تعلُّمَها مَضيَعةً للوَقتِ، وسَعَى إلى تَشكيكِ المَصريين فيهَا، وعَدَّهَا السّببَ الأساسيَّ لتخلّفِ المَصريينَ الآنَ، مُقارنةً بقُدماءِ المَصريين.

ومعَ كلِّ هذا بَقِيت اللّغةُ العَربيّةُ شامِخةً، قَويّةً، وتَصدّتْ لكلِّ المُحاولاتِ الّتِي سَعَت إلى هَدْمِها، ومَرجِعُ هذا في الدّرجَةِ الأولَى يَعودُ إلى كَونِها لُغَةَ القُرآنِ الّتي تَعهّدَ اللهُ جَلّ جَلالُهُ بحِفظِه، ومِنْ ثَمّ حِفظِها، فهُو القائلُ جَلَّ في عُلاهُ ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9)، بالإضافةِ إلى الجُهودِ الجَبّارةِ الّتي قَامَ – بها المُخلِصونَ مِنْ أبناءِ هذِهِ الأمّةِ في الحِفاظِ على هذِهِ اللّغةِ الكَريمةِ الشّريفةِ، وعلى رَأسِها تلكَ الجُهودُ المَشكورةُ التي تبذُلها بَعضُ المَجامِعِ العَربيّةِ في مُواكبةِ كلِّ جَديدٍ لِجَعْلِه في بَوتَقَةِ الفُصحَى، وإصْدارِ مَعاجِمَ ثَريّةٍ مُتطوّرةٍ كالمُعجَمِ الكَبير، ومُعجَمِ الدّوحَةِ، والمُعجَمِ التّاريخيِّ للّغةِ العَربيّةِ في الشّارقةِ بإشرافِ اتّحادِ المَجامعِ العَربيّةِ الّذي أشرقَتْ بَوادِرُه. فَهَلْ يَعْتَبِرُ هَؤلاءِ المُغرضونَ، ويَكُفّونَ عَنْ مُحاولاتِهِم البائسَةِ الفَاشلةِ؟!

> "بَقِيت اللّغةُ العَربيّةُ شامِخةً، قَويّةً، وتَصدّت لكلِّ المُحاولاتِ الّتي سَعَت إلى هَدْمِها، ومَرجِعُ هذا في الدّرجةِ الأولَى يَعودُ إلى كَونِها لُغةَ القُرآنِ الّتي تَعهّدَ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ بحِفظِه"

الاسْتِدْعاءُ الثَّقافِي في مَسْرِحية الصِّراعِ بين الظَّلامِ والنُّورِ

للمؤلف صاحب السمو الشيخ الدكتور: سلطان بن محمد القاسمي

د/خليل خلف سويحل

المُنتَجُ الثَّقافي هو المَيسمُ الفَارِقُ في تجَلّياتِ الإنسانيّةِ في أسمَى مَعانيها، ولذا كانتِ الثَّقافةُ هي الأسَاسُ في نَهضَةِ الشُّعوبِ؛ لكَونِها المُحرّكَ الرَّئيسَ في تَوجيهِ الأفرادِ وصَقْلِ مَواهبِهم وتَشذيبِ طِباعِهم.

والفَنُّ المَسْرحيُّ هو المِرآةُ الثَّقافيّةُ النّاصِعةُ في إيصالِ الأفكارِ شَكلاً ومَضمُونًا، فيحدثُ حينئذٍ التّأثيرُ في المُتلقّي، ولهذا قِيلَ: (أعطِني مَسْرحًا وخُبزًا أُعطِكَ شَعبًا عَظيمًا)، فمِنْ هُنا تَجلّى ذكاءُ المؤلِّف في إيصالِ رِسالَتِه عبْرَ مَسرحيّةِ (كتابُ اللهِ مسرحيّةُ الصِّراعِ بين الظَّلامِ والنُّور)، وربمّا تتعدّدُ زَوايَا الرُّؤيا إلى هذا النَّصّ المَسرحيِّ كلٌّ حسَب تصوُّرِه، فالحُكمُ على الشيءِ فرعٌ عن تصوّرِه.

ويُجسِّدُ هذا النَّصُّ المَسْرحيُّ ثَقافةَ المؤلِّف، فمنْ خِلالِها نَسبُرُ أغوارَ المَعرفةِ عندَهُ، ونَلِجُ إلى فَضاءاتِ الإبداعِ في مُخَيِّلتِه، واستِكشافِ القُدرَةِ على صَهرِ أفكارٍ شتَّى في بَوتَقةٍ واحِدةٍ في سِياقٍ تاريخيٍّ خَلّاقٍ.

أـ الثّقافَةُ القُرآنيّةُ:

استَطاعَ المُؤلِّفُ أن يتشرَّبَ معانيَ القرآنِ الكريمِ في نصِّهِ الإبداعِيِّ، فاستَشهدَ بالآياتِ القُرآنيّةِ في مواضِعَ عَديدةٍ تَصريحًا أو تلميحًا، ومن ذلكَ:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59]

جاءَتْ هذهِ الآيةُ الكَريمةُ في نِصابِها الصَّحيحِ من النَّصِّ المَسْرحيِّ للدِّلالةِ على نُقطةِ التَّحوُّلِ الكُبرَى في مَسارِ الحَياةِ وتَعطيلِ قوّةِ العَقلِ وانكفاءِ القِيَم.

﴿وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ٨١ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: 81-82]

استَعانَ المُؤلِّفُ بهذِهِ الآيةِ في لَحظةِ انتِصارِ الخَيرِ على الشّرِ، فالحَياةُ مَعركةٌ مُستمرةٌ، والنّصرُ في النّهايةِ للحَقِّ وأهلِهِ لا للأقْوَى والمُتجبِّر.

ذكر المؤلِّفُ الغُرابَ في نصّهِ مَرتَين بما فيهِ من دِلالاتِ الشّرِ والتّشاؤُمِ والإهانَةِ، ولعلَّهُ يُشيرُ في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ [المائدة: 31]، ومنَ المُلاحظِ أنّ الغُرابَ ذُكِر في القُرآنِ مَرتَين أيضًا، وهذا تَناصٌّ مُبدعٌ خلّاقٌ.

وصوَّر المؤلِّفُ تَشويهَ الظّلاميين لقِيَمِ القرآنِ العَظيمِ عِندَما: "يَعتَلِي أحدُهُم الآخرَ لِيَصِلَ إلى المُصحَفِ المُعلَّقِ بالسَّقفِ ويَخطفَه".

ولفظُ "الخَطْف" وحَركةُ الفِعلِ في المَسرحِ أوحَت بمعانٍ مكثَّفةٍ عن شِدّةِ قَسوتِهم وتهوُّرِهم وسَفاهتِهم ونَزقِهم وطَيشِهم، ويَستدعي هذَا التّصويرُ في لَاوَعْيِ المُتلقِّي قولَه تَعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: 31].

وهذِهِ الأنداءُ القُرآنيةُ جاءَتْ في النّصِّ المَسْرحيِّ عَفوَ الخاطِرِ لكَونِ سِياقِ الحَالِ استَدعاهَا بلا تكلُّفٍ وإقحام، وفيها إشارةٌ مَن المؤلِّفِ إلى أنَّ القُرآنَ الكَريمَ فيه تَصويرٌ كاملٌ لصَيْرورةِ الحَياةِ وتَقَلّباتِها.

ب ـ الثّقافةُ النّبويّةُ:

كانت الأحاديثُ حاضرةً بقوّةٍ في النَّصِّ المَسْرحيِّ ومِن ذلكَ قولُهُ (صلّى اللهُ عليهِ وسَلَّم) :

- "وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ، كِتَابَ اللهِ". (رواه مسلم)
- "اللهمَّ اجعَلْ في قَلبِي نُورًا، وفي لِسَاني نُورًا، وفي بَصَري نُورًا، وفي سَمْعِي نُورًا، وعنْ يَمِيني نُورًا، وعنْ يساري نُورًا، ومنْ فَوقي نُورًا، ومنْ تَحتي نُورًا، ومنْ أمامي نُورًا، ومن خلفي نُورًا..." (متفق عليه)

– "اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا اللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ صَدَقَ وَعْدَهُ وَنَصَرَ عَبْدَهُ وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ".

– وفي تشبيه المؤلِّف الظّلّاميين بالكلاب هو استدعاء للحَديثِ النَّبويِّ الشَّريف: «الخَوارجُ كِلابُ النّارِ» (رواه ابن ماجه).

ج ـ الثَّقافةُ التّاريخيّةُ:

للمُؤلِّف جِذرٌ ضاربٌ في أعمَاقِ الثّقافة التّاريخيّة، فهُو منها وهي منه، ففي كلِّ مُنتَجٍ ثَقافيٍّ يَمخرُ عُبابَ التّاريخِ فتَجدُ الظِّلالَ التّاريخيّةَ مخيِّمةً عليه، وهذا ما يَمنحُ النّصَّ المَسرحيَّ عُمقًا ثَقافيًّا، فالتّاريخُ يُعدُّ الرّافدَ الرّئيسَ في صِناعةِ النّصِّ عِندَه، ومِنْ مَلامحِ الثّقافةِ التّاريخيّةِ في مَسرحيةِ الصّراعِ بين الظّلامِ والنُّورِ:

– استدعاءُ فكرةِ الصّراعِ بين الخَيرِ والشّرِ وانتصارِ الخَيرِ في النّهايةِ، والتّاريخُ في مُجملِهِ هو رَصْدُ الصّراعاتِ بينَ البَشَرِ والأفكارِ والحَضاراتِ.

– استدعاءُ فِكرةِ عُصورِ الازدهارِ والرّقيِّ والحَضارةِ أيامَ الأُمويّين والعبّاسيين والأندلسِ وما وَصَلَ إليهِ المُجتمعُ المُسلمُ المُتحضِّرُ مِنْ تقدُّمٍ وانفتاحٍ وما يقابلُهُ على النَّقيضِ من تَطرّفٍ فِكريٍّ دينيٍّ نقيضِ الحَقِّ والحَياةِ.

د ـ الثّقافةُ الاجتماعيّةُ:

المُؤلِّفُ ضَليعٌ في مَعرفةِالثّقافاتِ الاجتِماعيّةِ، ونلمحُ ذلك من زَوايَا متعدِّدةٍ:

– إعطاءُ البُعدِ العاطفيِّ للمُجتمعِ المَشرقيِّ، فالإنسانُ المَشرقيُّ تكسرُه كِبرياءُ الحُبِّ، وتُذوِّبه نيرانُ الحَنينِ في قولِهِ:

من بلادِ الشّرقِ جِئنَا ... بالحُـبِّ والـوَلاءِ
نَـسـأَلُ حَـنيـنًـا ... مِنْ رِسالةِ السَّماءِ

– تقومُ عَناصرُ الثّقافةِ الاجتماعيّةِ في المَسرحيّةِ على رَكائزَ ثَلاثةٍ أساسيّةٍ هي: الأمَانُ والعِلمُ والإيمَانُ في قولِهِ:

أعطِنا الأمَانَ ... والعِلمَ والإيمَانَ

أبو نصر الفارابي

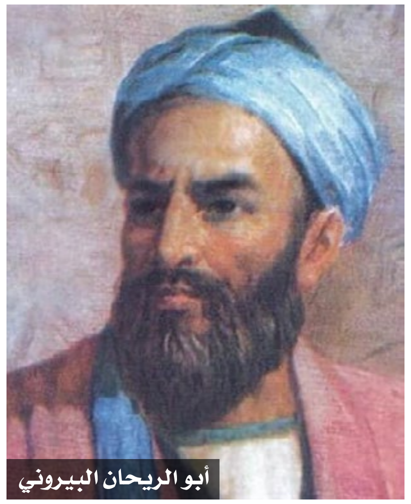
أبو الريحان البيروني

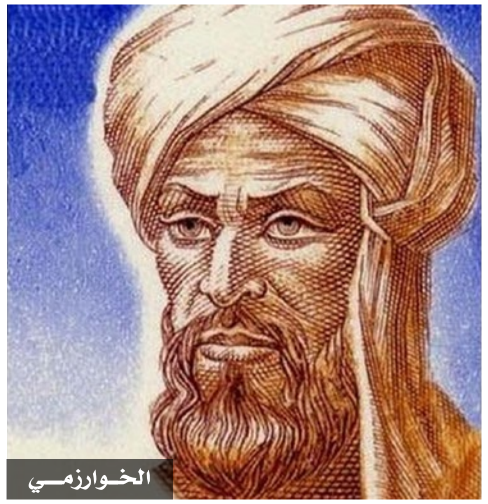
الخوارزمي

– ركّزتِ المَسرحيّةُ على مَكانةِ المَرأةِ في المُجتمعِ، ففي مُجتمعِ الانحِطاطِ والتّطرُّفِ تكونُ المَرأةُ مَسلوبةَ الإرادةِ وسِلعَةً تُشترَى وتُباعُ، وفي المُجتمعِ الواعِي والمُتحضّرِ تَكونُ المرأةُ سَيّدةَ نَفسِها ورَمزًا للحُبِّ والحَياةِ، وما أروعَ تلكَ الصّورةَ التي ذَكرها المُؤلِّفُ في قولِهِ: "ويُمسِكن بغِطاءِ الرّأسِ الأبيضِ منْ أطرافِهِ كَجَناحَيْ فَراشةٍ طائرةٍ"، حقًّا إنّها صُورةٌ مُوحيةٌ جَذّابةٌ تنبُضُ بالحَيويّةِ والفَرحِ والسّعادةِ، فالفَراشاتُ تَحترقُ في النُّورِ وكذا النّساءُ تَذوبُ في الحُبِّ، والفَراشاتُ تُرى بأجنحَتِها في الظّلامِ، وكذا النّساءُ تَرى بإحساسِها دُروبَ الحَياةِ، وما أجملَ قولَ محمود درويش:

أثَرُ الفَراشـةِ لا يُـرَى
أثَرُ الفَراشـةِ لا يَـزُول

هـ ـ الثّقافةُ العِلميّةُ:

منْ غاياتِ النّصِّ المَسرحيِّ في مَسرحيّةِ (الصّراعُ بين الظّلامِ والنُّورِ) إظهارُ مكانةِ العِلمِ والعُلماءِ في حياةِ الشّعوبِ، فالعِلمُ أسَاسُ أيّةِ تَنميةٍ وحَضارةٍ؛ لكونِهِ يرفعُ مَنسوبَ الوَعيِ عندَ الأفرادِ، ويُشكِّلُ التّعليمُ حَصانةً مَنيعةً ضِدَّ التّطرّفِ وأعداءِ الحَياةِ، ولهذا أنعَشَ المُؤلّفُ ذاكرتَنا بذكرِ رُموزِ عُلماءِ الأمّةِ الّذينَ شَكّلوا رَكيزةً في الحَضارةِ البَشريّةِ جَمعاءَ، فذكرَ الحَسَنَ بنَ الهَيثمِ عالِمَ الفيزياءِ، وجابرَ بنَ حَيّانَ عالِمَ الكِيمياءِ، والخَوارزميَّ عالِمَ الرياضِياتِ، والكِنديَّ عالِمَ الفلسفةِ، والفارابيَّ والبَيرونيَّ وغيرَهُم، وكأنّما أرادَ المُؤلِّفُ أن يُوصِلَ رِسالةً مُفادها قولُ الفَرزدَقِ:

أولَئكَ آبائي فَجِئني بِمِثلِهِـم
إذا جَمَعَتنا يا جَريرُ المَجامِعُ

والمُؤلِّفُ ذكيٌّ فيما يفعلُ فهو لا يذكرُ في نصِّه المَسرحيِّ الدِّينَ والإيمانَ من دونِ أن يَقرنَهما بالعِلمِ، فالنُّورُ عنده هو جِماعُ ثُنائيّةِ نورِ الوَحيِ ونورِ العَقلِ، ولا حياةَ مُتّزنةً من دُونِ أحدِهما، وعليهما تُشادُ الحَضارةُ.

و ـ الثّقافةُ الفلسفيّةُ:

لم يكنْ مَغزَى النّصِّ المَسرحيِّ الاستِمتاعَ بمَشاهدَ تَمثيليةٍ وحسب؛ بلْ له غاياتٌ فَلسفيّةٌ تَتراءى في سِياقِ الحِوارِ المَسْرحيِّ وأهمُّها:

1ـ بثُّ رُوحِ التّفاؤلِ:

عُنصرُ النّجاحِ والتّفوّقِ في أيِّ مَجالٍ من مَجالاتِ الحَياةِ يُبنَى على أساسِ التّفاؤلِ؛ لكونِهِ دافِعًا أساسيًا للانطلاقِ نَحوَ الجِدِّ والاجتِهادِ والاستكشافِ والتّغييرِ نحوَ الأفضلِ، وفي المُقابلِ فإنَّ التّشاؤُمَ واليَأسَ هما المِعولُ الهَدّامُ في ثقافَاتِ الشّعوبِ وصَيرورةِ الأفرادِ. ومن هنا كان تركيزُ المؤلِّفِ على صِناعةِ التّفاؤُلِ في نفسِ المُتلقِّي، وأمثلةُ ذلك كثيرةٌ، ومنها:

– جاءتْ كلمةُ (النُّور) في النّصِّ المَسرحيِّ مُكرّرةً في

مواضعَ عَديدةٍ بما لا يُقارَنُ بكلمةِ (الظّلام)، وهذه آيةٌ واضِحةٌ لرُؤيةِ المُؤلِّف وغايتِه من نصِّهِ المّسْرحيِّ.

- تِكرارُ الأناشيدِ في مَشاهدِ المَسرحية التي تُجدِّدُ العَزمَ والتّصميمَ على نشرِ ثَقافةِ الحَياةِ وبثِّ روحِ الأمَانِ والسّلامِ.

- استِخدامُ ألفاظٍ تُنعشُ التّفاؤُلَ في النّفوسِ وتُحْييهِ في القلوبِ، ومن ذلكَ: (الألوَانُ المُزركشةُ، الفَراشةُ، الأبيضُ، النّورُ، السّلامُ، المِصباحُ، المُصحفُ، الرّيشةُ، الألحَانُ....).

2ـ الرّمزُ بمفهُومِهِ الفَلسَفِيِّ:

تَتَجلّى عَبقريّةُ الإبداعِ في استخدامِ الرُّموزِ والصُّورِ المُكثَّفَةِ ومن ذلك مثلًا:

- (يأخذُون في الدّورانِ حَولَ الطّاوِلَةِ) وفي ذلك إشَارةٌ إلى البَحثِ عنِ الحَقيقَةِ التي يُحلّقُ في مَداراتِها أهلُ العِلْمِ.

- (يَتنطّطُون مثلَ الغِربانِ....) للدَّلالَةِ على خِفّتِهم وسَفاهَتِهم وتفلُّتِهم من عِقالِ الرَّزانةِ والخُلُقِ القَويمِ.

- (الغِربانُ، الكِلابُ، السَّوادُ) استعملَ هذِهِ الألفاظَ في وصفِ الظّلَامِيين، وهي ألفاظٌ مُشبَعةٌ بالإيحاءِ بمَعانٍ سِلبيةٍ كالشّرِ والنّذالةِ والظُّلمِ والانفلاتِ من قِيَمِ الإنسانِيّةِ.

- (والرّجالُ.... جميعُهم نائمُون) نقْدٌ ضِمْنيٌّ للنُّخبِ الفكريّةِ التي تقاعَسَتْ عن مُواجَهةِ الأفكارِ الهدّامَةِ.

وبهذا نَكونُ قدْ أحَطْنا بِبَعضِ جوانبِ الاستِدعاء الثّقافيِّ في مَسرحِيّةِ (الصرّاعُ بين الظّلامِ والنُّور) منْ خِلالِ تعدُّدِ المَنابعِ الثّقافيّةِ فيها، فهي بحَقٍّ عَمَلٌ إبدَاعيٌّ يُعطي الجَديدَ في كلّ قِراءَةٍ جَديدةٍ له.

يُجسِّدُ هذَا النَّصُّ المَسْرحيُّ ثَقافةَ المؤلِّفِ، فمنْ خِلالِها نَسبُرُ أغوارَ المَعرفةِ عندَهُ، ونَلِجُ إلى فَضاءاتِ الإبداعِ في مُخَيِّلتِهِ، واستِكشافِ القُدرَةِ على صَهرِ أفكارٍ شتَّى في بَوتَقةٍ واحِدةٍ في سِياقٍ تاريخيٍّ خَلَّاقٍ.

التّاريخُ في مُجملِهِ هو رَصْدُ الصِّراعاتِ بينَ البَشَرِ والأفكارِ والحَضاراتِ.

زِفافُ الْكَوْنِ مَبْعَثُكَ

عمر لوريكي

مِنْ سَكْرَةِ الْحُبِّ تَرْقَى جَـذْوَةُ الشَّغَفِ	لِتَنْثُـرَ الشَّـوْقَ فِي قَلْبِي مِنَ اللَّهَـفِ
أَنَـا مُتَيَّـمُ شِـعْـرٍ كُلُّـهُ وَهَـجٌ	مُزَخْـرَفٌ بِمَجَـازٍ هَـامَ مِـنْ رَجَـفِ
أَهِيـمُ وَجْـداً وَصَوْتُ الْحُلْمِ يُرْشِدُنِي	تَأَمُّلاً فِي فَـلاَةٍ ! مَـنْ بِهَا؟ فَصِـفِ !
كَـأَنَّ مَا أَبْصَـرَتْ صَفْـواً مُخَيِّلَتِـي	مَلاكُ وَحْـيٍ بَـدَا نَجْماً عَلَى كُشُـفِ
يَا فِكْـرَةَ الْكَوْنِ كَمْ فَاضَـتْ سَعَادَتُنَا	مِنْكَ الْهُيَامُ وَصَمْـتُ الـرُّوحِ مِنْ كَلَفِ
فِي قَلْبِ يَثْرِبَ هَدْيًا كُنْـتَ تَنْشُرُهُ	شَيّـدْتَهُ بِقَـرَارِ الصّفْـحِ عَـنْ سَلَفِ
فَكُنْتَ خَيْـرَ نَبِـيٍّ فِي بَدَاهَتِـهِ	تُلَيّنُ الـــرّأْيَ مَـوْزُوناً عَلَى أَلِـفِ
تَمُـدُّ وَصْـلاً لِكُلِّ النَّاسِ مُقْتَـرِباً	يَا سَيِّدِي أَنْـتَ غُصْنُ الدَّهْرِ فِي وَرَفِ
مَــدَدْتَ مَكّـةَ بِالأَمْجَـادِ تَكْتُبُـها	مِنْ قِصَّةِ الْبَدْءِ -عِنْدَ الْغَارِ- فِي الصُّحُفِ
فَمَا تَبَعْثَـرَ فِيـكَ الشَّـكُّ آنَئِـذٍ	وَمَـا تَسَـلَّلَ مِنْـكَ الْيُتْـمُ فِي ضَعَفِ
وَبِالْهُـدَى قُـدْتَ أَقْـوَاماً إِلَى فَـرَجٍ	تَسِيــرُ فِي عَـرْشِ سَـادَاتٍ كَمُكْتَشِـفِ
مُحَمّدٌ يَا شُـرُوقَ السِّلْـمِ كَاتِبَـهُ	فَـوْقَ الْقُصُـورِ وَبِالْآثَـارِ وَالتُّحَـفِ
بِاسْـمِ الإِلَـهِ -نَبِيُّ اللهِ- يُلْهِمُكُـمْ	أُخُـوَّةً نُـورُهَـا يَجْلُـو دُجَـى السُّدَفِ
هِـرَقْلُ قَـالَ بِدَمْعٍ لَيْتَنِـي مَعَـهُ	لَمَّـا تَـلاَهَـا عَلَى نُبْـلٍ بِـلاَ أَسَـفِ

محمد رسول الله

فَرَجَّ صَوْتُكَ عِنْدَ الْقُدْسِ يُعْلِنُها ... هَذَا رَسُولٌ وَتَأْوِيلٌ مِنَ الصُّحُفِ
يا موئلَ الرُّشْدِ قُدْني إنَّني وَصِبٌ ... قَدْ مَزَّقَتْنِي سِهَامُ التِّيهِ وَالشَّظَفِ
تَشَقّقَ الْبَدْرُ مُذْ أَرْسَلْتَ أَدْعِيَةً ... وَكَانَ آياً وَأَنْوَاراً بِلاَ خَسَفِ
يَا أَيُّهَا الرَّحْمَةُ المُهْدَاةُ قَدْ سُكِبَتْ ... عَلَى الوُجُودِ وَ عَمَّتْ كُلَّ مُنْعَطَفِ
أَعْجَزْتَ - شَرْقاً وَغَرْباً - كُلَّ فَلْسَفَةٍ ... وَقَدْ سَقَيْتَ نَخِيلًا حَامِلَ السَّعَفِ
بُشْرَى لنا وَالورى جذلانُ مغتبطٌ ... بيومِ مولدكَ الميمونِ في لَهَفِ
كَمْ رَحْمَةٍ مِنْ بُطُونِ الْأَرْضِ قَدْ وُلِدَتْ ... وَقَدْ أَتَى نورُها السَّارِي إلى الخَلَفِ
كَمْ نَسْمَةٍ مِنْ أَرِيجِ الكَوْنِ طَيِّبَةٍ ... عَمَّتْ بِبَعْثِكَ حَتَّى الشَّمْسُ فِي شَغَفِ
فَأَنْتَ مُبْتَدَأُ الْآمَالِ مَصْدَرُهَا ... تَحْنُو عَلَى كُلِّ مَكْلُومٍ وَمُرْتَجِفِ
تَقْضِي حَوَائِجَهُ ، تَبْنِي مَبَاهِجَهُ ... تَخْشَى عَلَى صَحْبِكَ الْأَطْهَارِ مِنْ جَنَفِ
يَا سَيِّدَ الْحَوْضِ يَا رُبّانَ قَافِيَتِي ... يَا خَاتَمَ الرُّسْلِ وَحْياً غَيْرَ مُخْتَلِفِ
سِرْ بي إلى البَرِّ أو رُؤْيَا تُدَثِّرُنِي ... إِلَى ثَنِيَّاتِ بَابِ النَّصْرِ[1]..لِلسَّلَفِ
هذي صَفَاوَةُ بَدْرٍ كُلُّهُ عِبَرٌ ... مَا مِثْلُهُ حِكْمَةً فِي الرَّأْيِ فَاغْتَرِفِ
لَا يَنْطِقُ الْغَيْبَ بِالْأَهْوَاءِ طَائِشَةً ... فَالْحَقُّ مَنْطِقُهُ نَقْشٌ عَلَى خَزَفِ
مَا وَدَّعُوهُ زِفَافُ الْكَوْنِ مَبْعَثُهُ ... فَأَوِّلِ الذِّكْرَ[2] يُخْبِرْ عَنْهُ فِي شَرَفِ
عُمْقٌ وَفِكْرٌ لَهُ فِي وَحْيِهِ أَمَلٌ ... حُبّاً تَجَلّى لِكُلِّ النَّاسِ فَالْتَقِفِ

---

(١) ثَنِيَّات بَابِ النَّصْرِ: ثنيات الوداع، والقصد هنا: رجاءٌ وتمنٍّ لو أنني كُنت من المحظوظين الذين استقبلوا الرسول صلى الله عليه وسلم. والثنية: طريق ضيق بين جبل سلع واللابة الغربية (جبل في المدينة المنورة).
(٢) الذِّكر: القرآن الكريم، لما فيه من تذكرة النَّاس بآخرتهم ومصالح دنياهم: " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ".

المَـلامِـحُ الـدِّرَامِيَّــةُ في الشِّعْـرِ العَـرَبِـيِّ

محمد عبد الله ولد عمارو

وَلِعَ المُستغرَبون، وضَحايا الاستلابِ الفِكريِّ، والمَسخِ الحَضاريِّ، بنَعْتِ اللُّغةِ العَربيّةِ بالتخلُّفِ، والضِّيقِ، والانكفاءِ على الذّاتِ، زاعِمينَ أنَّ العَربيَّ لا يَملكُ العَقليّةَ التّحليليّةَ، ولا الخَيالَ المجنَّحَ المُبتكِرَ، وأنَّ العَربَ بطَبيعتِهم، يَفتقِرون إلى ملَكةِ التَّحليل، ولا يتصَوّرون إلاَ المَحسوسَ، ويَعتمدُون على الغِنائيّةِ والخَطابَةِ الرّنّانة.

والحَقُّ أنّ اللّغةَ العَربيّةَ - كما أثبتَ الاستِقراءُ التّاريخيّ، والمَسحُ الانتربُولُوجي، هي أقدَمُ لُغةٍ عَرَفتْها البَشريّةُ، وآخرُ لُغةٍ ستَبقى، وقد مالَتِ الدُّولُ المُتقدمّةُ أخيرًا، إلى كتابَةِ أرشيفاتِها بالعَربيّةِ، كما أثبتَتِ الأبحَاثُ الألسُنيّةُ أنّها هي أغْنَى اللُّغاتِ، بالصِّيغِ، والأوزَانِ، والمُترادِفاتِ، والاشتقاقاتِ.

ومنَ التَّطبيلاتِ التي يَنعَقُ بها المُغرِضُون، أنَّ اللُّغةَ العَربيّةَ بِطَبيعَتها قاصِرةٌ عنِ التَّعبيرِ الدّرَاميِّ، لافتقارِ الذِّهنيّةِ العَربيّةِ لدَواعِي الدّرامَا، ومُستلزَماتِها.

وعلى الرُّغمِ منْ تَفاهةِ هَذَا المأخَذِ، وتهافُتِ الأسُسِ التي بُنيَ عَليها، فإنّنا نَرَى أنَّ للعَرَبِ وُجوهًا منَ الفَنِّ، والطُّقوسِ، والمُمارساتِ، يُمكِنُ اعتبارُها – وإنْ مع تَجوُّزٍ – ملامحَ دراميّةً عَرفَها العَربُ قَبلَ احتكاكِهم بالغَرْبِ، وقدْ تناثَرتْ هذِهِ المَلامحُ في شِعْرهم ونَثْرِهم، قبلَ الإسلامِ وبعدَه. وقدْ رأيتُ أنْ أتتبَّعَ هذه الملامحَ في شِعْرِهِم، مُقتَصرًا على نُصوصٍ تُعدُّ بالأصابعِ، مراعاةً للحَالِ، وحيِّزِ المَقالِ.

إنّ مُصطَلحَ الدّرامَا منَ المُصطلحاتِ الّتي تَأبَى الحَدَّ، ويَصعبُ تَحويلُها إلى مَعنًى مَخصُوص، يَستوِي المُتلقُّونَ في استيعابِه، لخُثورَةِ مَدلولِه، وتماهِيهِ في الوِجدانِ، وتَحوُّلِه منْ زَمانٍ إلى زَمانٍ، ومنْ مُجتمعٍ إلى آخَرَ.

ومع أنَّ الحاصِلَ في ذِهنِ المُتلقِّي أنّه مُصطلحٌ حَديثٌ لم تَعرفْه الثّقافةُ العَربيّةُ القَديمةُ؛ فإنَّ الباحِثَ علي عُمرانَ يقولُ: "إنّ العَربَ القُدماءَ قدْ تَعرَّضوا لمُصطلَحِ (الدّرامَا) بصُورةٍ قَريبةٍ من نُطقِه المُعاصرِ (كالدّرام، والدّراماطا)، ولكنّهم لمْ يَستطيعُوا تَقديمَ مفهُومٍ لَهُ؛ لأنّه كان غائمَ الملامحِ لدَيهم؛ لأنّ العَربَ لم يَعرفُوا الشِّعرَ التّمثيليَّ، وإن عرَفُوا الشِّعرَ الغِنائيَّ، لذا حاوَلُوا تَكييفَ المُصطلَحِ مَعَ مَعارِفِهم العَربيّةِ المُتّصلةِ بالشِّعرِ الغِنائيِّ.

فمُصطلحُ "الدّرام" كان مَعروفًا لَدَى فَلاسفةِ العَربِ الَّذين قَرَؤُوا أرسطُو، كابنِ سينَا، والفَارابيِّ، وابنِ رُشدٍ. فالفَارابيُّ يَتحدّثُ عنْ نَوعٍ منَ الشِّعرِ اليُونانيِّ يُسمّى "دراماطا"، وهو ذلك الذي تُذكَر فيهِ الأقَاويلُ المَشهُورة، سواءٌ أكانَتْ تلك من الخَيْراتِ أم منَ الشُّرورِ، كالأمثالِ المَضروبةِ، وكان يُستعمَلُ هذا النّوعُ منَ الشِّعرِ في الجِدالِ والحُرُوبِ، وعندَ الضَّجرِ، والغَضَبِ؛ على أنّ هذِهِ الأمثالَ المَشهورةَ، لا بدّ أنْ تكونَ لأشخَاصٍ مَعلُومين".

وأبو بِشرٍ متى بنُ يُونسَ في تَرجمتِه لكِتابِ الشِّعرِ لأرسطُو ، يَتحدّثُ عن هُوميرُوس الّذِي تفرّدَ وحدَهُ بعَمَلِ أشياءَ أحْسَنَ فيها، وقد عَمِلَ التّشبيهاتِ، والحِكاياتِ: الدّراماطِيقا، كان هُو أوّلَ من أظهَرَ شَكلَ صِناعةِ الهِجاءِ، ليسَ منْ بابِ الهِجاءِ فَقَطْ، ولكنْ في بابِ الاستِهزاءِ، والمُناظرةِ، والسُّخريّةِ، فإنّه قد عَمِلَ فيها النَّشيدَ المُسمّى باليُونانيّةِ (دراماطا).

مَعَ ما سَبَقَ، يُمكنُنا أنْ نَعُدَّ الدّرامَا ذلكَ الشَّيءَ الأخّاذَ، الّذِي يَستحوذُ على الشُّعورِ، ويَجعلُ المُتلقِّي في حالَةٍ من الانتِباهِ، والانجِذابِ، والتّأثُّرِ، يَستَمرِئُ استمرارَه، ويُحسُّ معهُ كأنّه يُهوِّمُ في عَوالِمَ خارجَ واقعِهِ، وفَوقَ مُدركاتِ حَواسّهِ، وهُو في كاملِ وَعيِهِ وتنبُّهِهِ.

إنّهَا ذلك الشَّيءُ الّذِي يُفتِّقُ فتلَ التَّصورِ، والمُسلَّماتِ العقليّةَ، والوراثيّةَ الّتي تتأبّى على الحُجَجِ والبراهين. إنّهَا ذَوبٌ مِنَ الفنِّ والعِلمِ، مَصُوغٍ على وجهٍ مَخصوصٍ، بيَدٍ أدبيّةٍ صَنَاعٍ. إنّهَا ذلكَ الهَناءُ الدافِئُ الّذِي يَحصلُ منَ العملِ الإبداعيِّ، فيُدغدِغُ المشاعِرَ، ويُهدْهِدُ النّفوسَ، ويتسلّلُ في حنايَاها، كخُيوطِ الضّوءِ الخافِتِ. إنّهَا باختِصارٍ: ذلكَ الشَّيءُ المَعروفُ الَّذِي يَأبَى التَّعريفَ.

وبغَضِّ النَّظرِ عن كونِ الثّقافةِ العَربيّةِ كانتْ بها مَظاهرُ

درامية أو لا، أو أنّ العَربَ عَرَفُوا مُصطلحَ الدّراما كما هو أو لا، فإنّ في مورُوثِهم الشِّعريِّ والنَّثريِّ، قبلَ الإسلامِ وبعدَه، مَلامحَ دراميّةً مَوجودةً بالقوّةِ إذا اعتَبَرنا – تجوُّزًا – أنّ الدّرامَا هي تلك الرُّوحُ الخَفيّةُ التي تَتشكّلُ في الأعمالِ الفَنّيّةِ، منْ تداخُلِ القِصَصِ، والحِوارِ، والأحداثِ، والصّراعاتِ، والشُّخوصِ، بشيءٍ منَ العَفويّةِ والتّساوُقِ.

ومِنَ الحِكاياتِ الشِّعريّةِ الطَّريفَةِ، الّتي دَرَجَ الشُّعراءُ على تَناولِها في أشعارِهم، حِكاياتُ إكرامِ الضَّيفِ، وقدْ تَفنّنَ فيه الجاهِلِيُّون، وبالَغُوا فيهِ، وامْتُدِحُوا بهِ؛ ولنا في مِيميّةِ الحُطيئَةِ الّتِي قالها في جاهِلِيتِهِ خَيرُ مثالٍ على مَلمحِ الحَكِي الدّراميِّ في الجاهِلِيَةِ:

وَطَاوِي ثَلَاثٍ مُرْمِلٌ نَـذَرَ الصَّوْمَا
بِبَيْدَاءَ لَمْ يَعْرِفْ بِهَا سَاكِنٌ رَسْمَا
أَخِي جَفْوَةٍ فِيهِ مِنَ الإِنْسِ وَحْشَةٌ
يَرَى البُؤْسَ فِيهَا مِنْ شَرَاسَتِهِ نُعْمَى
وَغَادَرَ فِي شِعْبٍ عَجُوزًا إِزَاءَهَا
ثَلَاثَةُ أَشْبَاحٍ تَخَالُهُمُ بُهْمَا
رَأَى شَبَحًا وَسْطَ الظَّلَامِ فَرَاعَهُ
فَلَمَّا بَدَا ضَيْفًا تَكَدَّرَ وَاهْتَمَّا
فقال: هَيَا رَبّاهُ ضَيفٌ ولا قِرىً
بحقِّكَ لا تَحْرِمْهُ تِي اللَّيلةَ اللَّحما
فَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَأَى سُوءَ حَالِهِ
أَيَا أَبَتِ اذْبحْنِي وَيَسِّرْ لَهُ طُعْمَا
وَلَا تَعْتَذِرْ بِالعُدْمِ عَلَّ الَّذِي أَتَى
يَظُنُّ لَنَا مَالاً فَيُوسِعُنَا ذَمَّا
فَرَوَّى قَلِيلاً ثُمَّ أَحْجَمَ بُرْهَةً
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَذْبَحْ فَتَاهُ فَقَدْ هَمَّا
فَبَيْنَا هُمَا عَنَّتْ عَلَى البُعْدِ عَانَةٌ
قَدِ انْتَظَمَتْ مِن خَلْفِ مِسْلَحِهَا نَظْمَا
عِطَاشًا تُرِيدُ المَاءَ فَانْسَابَ نَحْوَهَا
عَلَى أَنَّهُ مِنهَا إِلى دَمِهَا أَظْمَا
فَأَمْهَلَهَا حَتَّى تَرَوَّتْ عِطَاشُهَا
فَأَرْسَلَ فِيهَا مِنْ كِنَانَتِهِ سَهْمَا
فَخَرَّتْ نحُوصٌ ذَاتُ جَحْشٍ سَمِينَةً
قَدِ اكْتَنَزَتْ لحْمَاً وَقَدْ طُبِّقَتْ شَحْمَا
فَيَا بِشْرَهُ إِذْ جَرَّهَا نحْوَ دَارِهِ
وَيَا بِشْرَهُمْ لَمَّا رَأَوْا كَلْمَهَا يَدْمَى
فَبَاتُواْ كِرَامَاً قَدْ قَضَواْ حَقَّ ضَيْفِهِمْ
فَلَمْ يَغْرَمُواْ غُرْمَاً وَقَدْ غَنِمُواْ غُنمَا
وَبَاتَ أَبُوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَبَاً
لِضَيْفِهِمُ وَالأُمُّ مِنْ بِشْرِهَا أُمَّا

فهذا النُّصُّ – على غِنائيتِهِ وشاعِريتِه – بناءٌ دراميٌّ متكامِلٌ، من تَمهيدٍ، وأزمَةٍ، وعُقدةٍ، وحَديثٍ نَفسيٍّ، وشُخوصٍ، ومَكانٍ، وزَمانٍ، إلى انفِراجٍ، وسيرٍ نحوَ الحَلِّ، إلى النّهايَةِ السَّعيدةِ.

والحَقُّ أنّ مَلامحَ الدّرامَا في المَوروثِ الشِّعريِّ، أعَمُّ وأغنَى منْ أن نَحصُرَها في وُجوهٍ تُعدُّ على أصابعِ اليَدِ؛ ثمّ إنّ هذا البُعدَ ليسَ منَ البَساطَةِ والسَّطحيّةِ بحيث نُقدّمُه على وَجهٍ مَخصوصٍ، يَستَوي في استيعابِهِ جَميعُ المُتلقِّين؛ فتَحويلُ العاطِفَةِ الغِنائيّةِ إلى فِكرٍ يَقبلُ الشَّكلَ الدَّراميَّ، وإبرازَ الصِّراعِ النَّفسيِّ، ووَصفَ الحَركةِ الدّاخليّةِ في النّصِّ، والتّناقُضِ والثُّنائيّةِ داخِلَه، وتَشخيصَ الأشياءِ، وبَثَّ الحَياةِ فيها، وخَلْقَ المُفارَقات، وتَهيئةَ الحِوارِ، وإبرازَ الأحاديثِ النّفسيّةِ الدّاخليّةِ، وتَوظيفَ المَوروثِ الدِّينيِّ، والتّاريخيِّ، والشَّعبيِّ، واستِخدامَ تقنِياتِ الفُنونِ الأخرَى، منْ مَسرحٍ، وتَصويرٍ، ونَحتٍ، وانتِهاجِ الأسلوبِ السّاخرِ؛ كلُّها وجوهٌ لاستخدَامِ البُعدِ الدَّراميِّ في النّصِّ الإبداعيِّ، تَطفَحُ بها مُدوّنةُ الشِّعرِ العَرَبيِّ القَديمِ، ممّا يُؤكّدُ غِنَى اللُّغةِ العَربيّةِ واتّساعَها لاستيعَابِ كلِّ المَفاهيمِ والتّصوُّرات الإنسانِيّةِ، خِلافًا لما يُروّجُه دعاةُ التَّغريبِ، وضَحايا المُيوعةِ والاستِلابِ الحَضَاريِّ.

> إنَّ للعَرَبِ وُجوهًا منَ الفَنِّ، والطُّقوسِ، والمُمارساتِ، يُمكِنُ اعتبارُها - وإنْ مع تَجوُّز - ملامحَ دراميّةَ عَرفَها العَربُ قَبلَ احتكاكِهم بالغَرْبِ، وقدْ تَناثَرتْ هذِهِ المَلامحُ في شِعْرهم ونَثْرِهم، قبلَ الإسلامِ وبعدَه

إبْرَاهيمُ السَّامَرَّائي
ومَنهجُهُ في سَعَةِ العَرَبِيَّةِ

حسن الربيع

الحَديثُ عن اللُّغةِ العَربيّة مُتشعِّب جدًّا، ولا يمكنُ مُعالجةُ قَضَاياها إلا بالوقُوف على جَوهَرِ العِلم نفسِه، وهو الاستِعمالُ والوَضْعُ والدِّلالَةُ مع قابليّةِ رُوحِها على الانتقالِ والتّجدُّدِ، والنّحوُ جزءٌ لا يُستَغنى عنهُ في اللُّغةِ؛ لأنّه يقومُ على تَوضيحِ المَعنَى في الجُملةِ، فهُو مِلْحُ الكلامِ كما يقالُ، هذا المِلحُ مَطلوبٌ ولكنْ بمِقدارٍ، فكثرتُه تَجعلُ الكلامَ ممجُوجًا، وعدمُهُ يجعلُ الكلامَ غيرَ مُستساغٍ، والنّحوُ عِلمٌ لضَبطِ الكَلامِ في مقاصدِهِ ولكنّهَ ضَبطٌ مَرِنٌ وَفْقَ ما يقتَضيهِ قانونُ التّوسّعِ اللُّغويِّ، وهذا ما جَعَلَ الدكتورَ إبراهيمَ السّامرائيَّ (ت 2001م) يُفردُ كتابًا أسماه: (منْ سَعَةِ العَربيّةِ) الصادرَ في 1414هـ/ 1994م عن دار الجيلِ ببَيروت، وسنةُ كتابته كما أشار في المقدمة كانت 1410هـ، والكتاب يَستشعر روحَ اللّغةِ وجوهرَها من حيث النّظرُ إلى تاريخِها ونموِّها عبْرَ العُصُور.

تَشهدُ المَكتبةُ العَربيّةُ للسّامرائيِّ بجهودِهِ في التّأليفِ والتّحقيقِ من خِلالِ إصداراتِهِ الغَنيّةِ عن التّعريفِ، فهو عالِمٌ سَبَرَ التّراثَ اللُّغويَّ، وخاضَ غِمارَ ما يُكتبُ عن اللّغة حديثًا، وآراؤُهُ في كتابِهِ الآنِفِ الذّكرِ مُهِمَّةٌ جدًّا؛ لكونها جاءتْ من خَبيرٍ بعدَ مَسيرَةٍ عِلميّةٍ طَويلةٍ، وكونها مُحاولةً لمواكبَةِ الطّريقةِ العَصريّةِ في التّيسيرِ والتوسّعِ للُّغَةِ جَريًا على قاعِدَةِ التّطوّرِ والأخذِ بالتّراكُمِ المَعرفيِّ.

النَّحْوُ، وسَعَةُ العَربيّةِ

أوردَ شَواهدَ من القرآنِ الكريمِ والأحاديثِ النّبويّةِ الشّريفةِ تُخالِفُ ما سَطّرَهُ النُّحاةُ من قَواعدَ، تدليلًا على عدمِ استيفائهم للُّغَةِ في استعمالاتٍ أخرَى غيرِ الشِّعْرِ، ويقومُ بمعالجَةِ هذهِ المُخالفَةِ بحسَبِ نظريّةِ توسُّعِ العَربيّةِ من خلالِ تاريخِها الّذي لم يُولِه النُّحاةُ اهتمامًا.

نكتَفي بمِثالٍ واحِدٍ ممّا أخذَهُ على النُّحاةِ؛ حيثُ يذكرُ قاعدَتَهم (عدمُ جوازِ حَذفِ المَعطوفِ)، ثمّ يُوردُ شاهِدًا مَنَ الحَديثِ ينقُضُها: (اجتَنِبُوا المُوبقاتِ: الشِّركَ باللهِ والسِّحرَ)، وينقُلُ لنا تَعليقَ ابنِ مَالكٍ: "تَضمّنَ الحَديثُ حذفَ المعطُوفِ للعِلمِ بِه، فإنّ التقديرَ: (اجتَنِبُوا المُوبقاتِ: الشِّركَ باللهِ والسِّحرَ وأخواتِهما وجازَ الحَذفُ؛ لأنَّ المُوبقاتِ سَبعٌ بُيِّنت في حَديثٍ آخَرَ. واقتُصِر في هذا الحَديثِ على اثنَينِ، تنبيهًا على أنّهُما أحَقُّ بالاجتِنابِ" هنا كما نلاحظ كَسرٌ للقاعدَةِ النَّحويّةِ في حذفِ المَعطوفِ الّذي لم يُجزه النُّحاةُ، فكانت الآيةُ و الحَديثُ شاهِدين على الحَذْفِ.

إبراهيم السامرائي

أبْنِيَّةُ الفِعْلِ

وفي فَصلٍ آخرَ يُناقِش في أبْنِيَّةِ الفِعْلِ ما يَفتقرُ إلى نَظرٍ جَديدٍ مثل: الفِعْلِ المَبنيِّ للمَجهولِ ونائبِ الفاعِلِ، وممّا سجّلَهُ على النُّحاةِ اضطِرابُهم مع الفِعْلِ اللّازمِ الّذي يكتَفي بالفاعِلِ فلمْ يَستَطيعُوا أنْ يَبنُوه للمَجهولِ مثل: فَنِيَ العُمْرُ، وزالَ الشَّيءُ؛ لامتنَاعِ أن يكونَ بعد الفاعِلِ ما يمكنُ أن يَنوبَ عنهُ، ممَّا أوصلَهُ إلى أن يَنْفي مسألَةَ البناءِ للمَجهولِ والنائِبِ عن الفاعِلِ، وأنّ ما دُعِي "مَجهولًا" بناءٌ يُؤدّي ما يؤدِّيه بناء "افْتَعَلَ"، و"انْفَعَلَ".

التّذكِيرُ، والتّأنيثُ

يَظهرُ لنا منْ خلالِ مُناقشَتِهِ لمسألَةِ التّذكيرِ والتّأنيث

في اللُّغَةِ قَبولُه بما يَرِدُ في الصِّحافَةِ العَربيّةِ منْ استِعمالاتٍ وظَواهرَ اعتِمادًا على الغَورِ التّاريخيِّ للّغَةِ، وقَبولُه بما يَردُ على ألسِنَةِ العَوام.

ونَفهمُ من مُناقشَتِهِ لهذِهِ الظّاهرَةِ في اللُّغَةِ أنّه يُوازِن بين ما هُو مَسموعٌ عند العَربِ وما هُو متغيِّرٌ في العَصرِ الرّاهِنِ، فاللّغَةُ قائمَةٌ على السَّماعِ في تأنيثِ ما ليسَ له عَلامةٌ، لكنّهُ مُؤمنٌ بأنّ اللّغَةَ العَربيّةَ في تَطوُّرها عبْرَ العُصُور احتاجَتْ إلى التَّمييزِ بين المُذكّر والمُؤنّثِ، فلحقَتْ بعضَ الألفاظِ عَلاماتُ تأنيثٍ مع أنّ صُورتَها في الأصلِ تُستعمَلُ للتأنيثِ إلّا أنّ مُسوِّغَ التّفريقِ بين المُذكّر بالعلامَةِ الفارِقَةِ راجِحٌ؛ لأنّ (اللغة ماضِيةٌ في هذَا الطّريقِ من التّطوّر الحَتميّ). لنأخذْ مِثالًا على ذلكَ كلمةَ (عَرُوس) وهي نَعتٌ يَستوي في الرّجلِ والمرأةِ في المَعاجِم العَربيّةِ، إلّا أنها خُتمَت بعلامَةِ تأنيثٍ في لغتِنا السّائرَة (عَروسَة) كما في الصُّحفِ العَربيّةِ وهذا لونٌ من التّطوّر الحَتميّ.

عَودَةٌ إلى النَّحْوِ

أمّا عنْ جُملَةِ ما اقترَحَه في الدَّرسِ النَّحويِّ الجَديدِ، فنُشيرُ إلى ثَلاثِ مَسائلَ مُتعلّقةٍ بالإعرابِ:

– إلغاءُ الإعرابُ التّقديري كما في المقصُورِ والمَنقُوصِ؛ لأنّه غيرُ مُطالَب أن يحدّدَ العلامةَ المقدّرَة الّتي لا تظهرُ ثقلًا أو تعذُّرًا.

– إلغاءُ الإعرابُ المَحلّي، كما في إعرابِ الضّمائرِ وأسماءِ الإشارَةِ، فيكفي أن يحدِّدَه فاعلًا أو مفعولًا به.

– إلغاءُ بعضِ التّعليلاتِ الإعرابيةِ والتأويلاتِ التي حفَلَ به النّحوُ القديمُ، فمثلًا في الفعل (يكتبُ) يقال: مَرفوعٌ لتجرُّدِه عنِ النّاصِبِ والجازِمِ، فكأنما أُريدَ له أن يُظهِر نَمطًا في عقليّةٍ فلسفيّةٍ تُؤمنُ بالعلّةِ والنّتيجَةِ.

منْ خلالِ ما تقدَّمَ من عَرضٍ نَستطيعُ القَولَ: إنَّ السَّامرائيَّ واحِدٌ من المُجدِّدين اللُّغويين، وحينَ نَصِفُه بهذا فإنَّ نقدَه اللُّغويَّ والنَّحويَّ – على وجهِ الخُصُوص – قائمٌ على نقلِ اللُّغَةِ من حالَةِ الجُمودِ التي قرَّرَها النُّحاةُ بقواعِدِهِم المُنجزَة إلى حالتِها الشَّجريّةِ في النّموّ والتّجدّدِ والتّخلُّص، فإيمانُهُ بالتّطوّر اللُّغويِّ وإيمانُه بسَعَة اللّغةِ وَفْقَ ضَوابطِ البحثِ التّاريخيِّ وقانونِ التّطوّر يجعلانِه يسلكُ هذا المَسلكَ التَّجديديَّ الذي يمنحُ اللّغةَ شُرفاتٍ وأجنحةً تطيرُ بها إلى كلِّ مَكانٍ وزَمانٍ.

مُوَاكَبَةٌ عَصْرِيَّةٌ

وإذا مِلْنا إلى مَنهجِ السَّامرائيِّ التّوسّعيِّ، فإنّ ذلكَ راجِعٌ إلى وُضوحِ تَطبيقِ الأدَواتِ والوُصولِ إلى نَتائجَ تصبُّ في رُوحِ اللُّغَةِ ومن صَميمِ جَوهرِها، فهُو في هذا الكِتابِ يَذهبُ إلى اللّغةِ ليَفهمَها، ثمّ يَتجوّلَ في عُصُورِها؛ ليَعودَ إلينا مواكبًا حركةَ نُموِّها وتَطوّرِها الحَتميّ. وقدْ جاءَتْ هذهِ المُواكبَةُ نَتيجةَ ما يملِكُه السَّامرائيُّ من ثَقافةٍ لُغويةٍ عَميقةٍ جدًّا، ومن ذِهنيةٍ واعيةٍ لحيويّةِ اللُّغةِ التي استوعبتِ العُصُورَ وما زالت تَتجدَّد.

يعودُ ما توصَّل إليه السّامرائيُّ من نتائجَ إلى ما قامَ بهِ في جُلِّ فصولِ كتابِهِ، ومنَ المُمكنِ أن نلخِّصَهُ في الآتي:

1- أخذُهُ بنَظريّةِ الاستِقراءِ التّضاريخيّ الشّامِلِ، وهذا توسّعٌ لا يَنتهي عندَ باحثٍ لُغويٍّ واحِدٍ، فيَبقَى الاحتمالُ واردًا في مخالَفَةِ القاعدَةِ الأصليّةِ.

2- تفعيلُ نَحْوِ القُرآنِ ونَحْوِ الحَديثِ بشَكلٍ مُوسَّعٍ، يَفتحُ لنا البابَ على مِصراعيه للدُّخُول إلى طَورٍ أوسَعَ منَ الاستِشهادَاتِ الشِّعريّةِ وكَلامِ العَربِ في الجاهِليّةِ.

3- الدَّرسُ اللُّغويُّ والنَّحويُّ بحاجَةٍ إلى التّيسيرِ على مرِّ العُصُورِ، والتَّوسُّع تَيسيرٌ، ومنْ مُتطلّباتِ التّيسيرِ المَيلُ

إلى ما خَفَّ على اللّسانِ وسَهُل على الأذهَانِ ممّا يَحتاجُ إليه العَصرُ، والتّخلّصُ من بعضِ المُصطلَحاتِ النَّحويةِ الغامِضَةِ على النّاشِئةِ.

4- يُفهمُ من خلالِ بَحثِ السَّامرائيِّ أنّه يقومُ بمَشروعٍ إصلاحيٍّ تحتاجُ إليهِ اللّغةُ من عَصرٍ إلى عَصرٍ، هذا الإصلاحُ مُتوجِّهٌ إلى القواعِدِ والأُسُس، وليسَ إلى ما نَتَجَ عنها من تَشويشٍ وخَللٍ ومَشَقةٍ في تلقّي القاعدة فقط، هذا النّوعُ من الإصلاحِ لا يقومُ بِهِ إلّا منْ لهُ قَدمٌ رَاسخةٌ في مَسائلِ اللّغةِ وتجربةٌ على أرضِ الوَاقِعِ، والسّامرائيُّ أهلٌ لهذا لِما لهُ من إسهاماتٍ نَفيسةٍ في شَتّى فُروعِ اللّغةِ.

5- نظرتُهُ إلى ما أدخلَتْهُ التّرجَمةُ منْ دِلالاتٍ جَديدةٍ وكذلك الصَّحافَةُ تَعكِسُ إيمانَه بعدَمِ الجُمودِ على ما وَرَدَ في تاريخِ اللّغةِ، بلْ يَرَى أنّ تاريخَ اللّغَةِ لا يَتوقّفُ عندَ الاستِقراءِ القَديمِ فَقَط، بلْ مِنَ المُمكنِ إضافةُ ما استَجَدَّ إلى هذا التّاريخِ وتوسعتُهُ؛ فاللّغةُ لا ترفُضُ الاستِفادةَ من اللّغاتِ الأخرَى ولا منْ مَيادينَ جَديدةٍ للكِتابَةِ كمَيدانِ الصّحافَةِ.

6- نظرتُهُ إلى العاميَّةِ تَقومُ على المُوازنَةِ بين الواقعِ وبين الرّسميِّ، فالمُجتمعاتُ العَربيّةُ تَستخدِمُ الفُصحَى في المَجالاتِ الرّسميّةِ كالتّعليمِ والإعلامِ وبقيّةِ الدّوائرِ الرّسميّةِ، ولكنّها في الحياةِ العامّةِ تَستخدمُ لُغةً مَحليةً (لَهجَة) للتّواصُل، وعليهِ لا بُدَّ منْ إدخالِ العاميَّةِ في البَحثِ اللُّغويِّ، وعَدم تَهميشِ لغةِ الحياةِ العامّةِ، فهو لا يذهبُ مَذهبَ من يرى أنّ العاميَّةَ شيءٌ مرذولٌ بالمُطلَق؛ (لأنها تُقدّمُ نماذجَ حيةً يستطيعُ الباحثُ أن يجدَ فيها أثرَ التّطوّر اللغويِّ). كمَا أنّه يؤمنُ أنّ العربيّةَ لا تتطوّرُ من جُذورِها ولا تتوسّعُ في البَحثِ التّاريخيِّ فَقَط، بلْ حتّى ممّا يَتفرّعُ عنها من لهجاتٍ محلّيةٍ في الألسُنِ الدّارجةِ التي تتدخلُ في التّأثيرِ عليها، ومنَ المُمكنِ الاستِفادةُ منَ الفُرُوع في فهمِ بعضِ الظّواهرِ في العَربيّةِ الفَصيحة.

حَولَ الإِبْدَاعِ والتَّجدِيدِ فِي الشِّعْـرِ العَرَبـِي

د. خالد برادة

يُمثّل الشِّعرُ ذروةَ البَيانِ الإنسانيِّ، ومَوئلَ الجمالِ الفنّي، فضلًا عنْ أنّه أسمَى فنونِ اللّغةِ العَربيّةِ، فهُو لها دَعامةٌ قويةٌ بعدَ القُرآنِ الكَريمِ، وهُو يَجمعُ بين صُورةِ الفَنِّ، وصُورةِ الثّقافَةِ؛ ولذا يَجبُ الانطلاقُ به لمُسايرَةِ الحَياةِ والسّيرِ في مَواكبِها، بَحثًا عنِ القِيَمِ العُليا والشَّدْوِ بها، فالشِّعْرُ هو فنُّ الجَمالِ، وهو السِّحرُ الحَلالُ، له قيمةٌ جَماليةٌ ورِسالةٌ حَضاريةٌ.

والشّاعرُ الّذي يَمتلِكُ قُوّةَ المَوهبَةِ، وسَلامةَ الملَكَةِ الشِّعريةِ، وصَفاءَ الرُّوحِ، وروعَةَ التّصويرِ، هُو الخَليقُ بتَطويعِ اللّغةِ لِفَنِّهِ، والجَديرُ بإضافَةِ مَعانٍ جَديدةٍ للشِّعرِ العَربيِّ، فيُعبِّرُ عمّا يُخالِجُ نَفسَه، وما تَهمسُ به أحاسيسُهُ، وما تُكابدُهُ أمّتُهُ، فيكون لسانَ حالِهِ وقومِهِ، مُصوِّرًا ذلك تَصويرًا فَنيًّا أخّاذًا؛ وإنّ الشّعراءَ الّذين يُخلّدهُم الزّمانُ هم أصحابُ الرّسالاتِ الهادِفةِ، والقِيمِ المُثلى في الحَياةِ، فَهُم بها يترنَّمُون، ولها يَدْعُون.

وحَريٌّ بالشّاعرِ الّذي يَسعَى إلى الإبدَاعِ أنْ يَكونَ قدْ حَذَقَ صِناعةَ الشِّعرِ، وتَعرّفَ على اتّجاهاتِهِ وأغراضِهِ، ليستَطيعَ الانتِقالَ بهِ إلى مَرحلةٍ تَستجيبُ لمُتطلّباتِ عَصرِه، فيَنطلقُ في آفاقٍ فَسيحةٍ منْ إشراقِ المَعَاني، وسُمُوّ الخَيالِ، وسِحرِ المُوسيقَى الشِّعريّةِ، بلفظٍ جَزلٍ مَتينِ السّبكِ، عَميقِ المَعنَى، بَعيدًا عنِ الصّنعَةِ والابتِذالِ، وبذلكَ يَسلَمُ الشّاعرُ من التّقريريّةِ، والنّبرةِ الخِطابيّةِ المُباشَرَةِ، فيكُونُ شِعرُه عَميقَ الدّلالةِ، نابِضًا بالفَنِّ، ساحِرًا بالجَمالِ.

والشّاعرُ الذي يَمتلكُ المَوهبةَ، ويَستوعبُ التّراثَ، ويُحسنُ استِخدامَ المُوسيقى الشِّعريّةِ، ويُبدعُ في ابتِكارِ الصُّورِ والأَخْيلةِ، ويَجمعُ بين العَواطِفِ الوِجدانيّةِ، والوَصفِ الفَنّي، معَ سَلامةِ اللّغةِ، وشرفِ المَضمونِ، هو الشّاعرُ المُبدعُ المُجدِّد، الّذي تَقرأُ قَصائدَه فتجدُ فيها من قَبَسِ الفَنِّ، ورُوحِ الشّاعريّةِ، فَتَراه يَشعُر ويَسحَرُ ويَبلغُ في التّصويرِ مَنزلةً كَبيرةً.

فالشّاعرُ بحقٍّ هو الّذي يَشعُر بالحَياةِ شُعورًا عَميقًا، وبذلك يُنبعُ الشِّعرَ من أعمَاقِ نفسِهِ الرّقيقَةِ، معَ قوّةِ العاطِفَةِ وصَفائِها، وإشراقِ الرُّوحِ، ناهيكَ عن صِدْقِ الشُّعورِ، ورقّةِ الإحسَاسِ، ودِقّةِ البَيانِ.

ومنَ الضَّروريِّ أنْ يَكونَ الشّاعرُ دَقيقَ الفَهمِ لأصُولِ الفَنِّ ومَذاهبِهِ، مُؤمنًا بأهمّيةِ استلهامِ الطّبيعَةِ، ليَستوحيَ منها أسْرارَ المَعَاني، وروائعَ الصُّورِ، فيُحسنَ الصّياغةَ الفَنيّةَ منْ وَحيِ تجربتِهِ الشِّعريّةِ، فالشِّعرُ مَوهبةٌ وطَبعٌ، لا أثَرَ للتّكلّفِ فيهِ، فَضلاً عنْ أنّه إبداعٌ وخَيالٌ وصُورٌ ومُوسيقَى، والمُوسيقَى الشِّعريّةُ هي الّتي تَمنحُ القَصيدةَ قِيمةً جَماليةً، ومُتعةً فَنّيّةً، وتَجعلُها أكثَرَ تَأثيرًا.

والشّاعرُ الّذي يَسعَى إلى التّحليقِ في آفاقِ الإبدَاعِ والتّأثيرِ في النُّفوسِ هو الّذي يَحرِصُ على أن تَكونَ مُوسيقَى شِعرِهِ مُلائمةً لرسالتِهِ، فإذْ ذاكَ يَنفذُ شِعرُه إلى القُلُوبِ، ويَأسِرُ الألبَابَ، ويَحيَا في أعمَاقِ الوجدانِ، ولا يعزُبُ عن الأذهَانِ.

ويُعدُّ التّجديدُ في الشِّعرِ العَرَبيِّ منْ أسمَى الغَاياتِ، فهو الرِّهانُ الحَقيقيُّ لخدمَةِ الفَنِّ الشِّعريِّ والمُضيِّ به قُدُمًا نحو الابتكَارِ والازدِهارِ، وبذلكَ يَكونُ للشِّعرِ فَاعِليّةٌ في الحَياةِ، وأثرٌ في المُجتمعِ.

والتَّجديدُ في الشِّعرِ كامِنٌ في مَعرفةِ الشّاعرِ السّبيلَ المُوصلَ إلى نَظمِ قَصيدتهِ في مَهارةٍ وإجادةٍ، ومَلئِها بالصّورِ النّاطقةِ المُعبِّرةِ، فضلاً عن اختيارِهِ لقَصيدتِهِ أروَعَ الأَساليبِ، وأبدعَ الأَخْيِلةِ، وجَديدَ المَعَاني، فَتكُون بذلكَ قَصائدُهُ مُفعَمةً بصُورِ الجَمالِ، ولآلئِ الحِكمةِ، وأنغامِ الفَنِّ.

وإنّ حِرصَ الشّاعرِ على التّوليدِ في المَعَاني، والتّجديدِ في مَوضوعاتِها دَليلٌ على فِطنتِهِ، ورِقّةِ إحساسِهِ، ودِقّةِ بَصرِهِ، ونُفوذِ فِكرِهِ، للخُروجِ من أَسْرِ التّقليدِ، وقُيودِ التّصنُّعِ.

ونَنتَظِرُ أنْ يُقدّمَ لنا الشّاعرُ صُورًا فيّاضةً عن آياتِ الكَونِ، وإرهاصَاتِ الحَياةِ، وآلَامِ الإنسانِ وآمالِه، لا مُجرّدَ ألفاظٍ مُنغّمةٍ، ومَعانٍ منمّقةٍ، ويرسُمَ لنا مَشهدًا فَريدًا تتآلَفُ فيه

الأصالةُ ووَهَجُ الفَنِّ، مع فَلسفةٍ عَميقةٍ، تَظهَرُ منْ خِلالِها شَخصيّةُ الشَّاعرِ وعَبقريتُه، عن طَريقِ المُواءمةِ بين الشِّعرِ والشُّعورِ، والفِكر والعاطِفةِ، والحَقيقةِ والخَيالِ، فالشَّاعرُ ذُو عَقلٍ راجحٍ، يَطيرُ بأجنِحةِ الخَيالِ الجامِحِ؛ وبذلكَ يتمكّنُ منْ أداءِ مَشاعِرِه وإبداعِهِ الفَنِّي إبداعًا مُلهِمًا، فَيقدّم صُورةً مُثلَى للشِّعرِ العَربيِّ، مع سلامَةِ اللّغةِ وجَزالتِها، ولا ضَيرَ في أنْ تَختلِفَ نَزعاتُ الشُّعراءِ الفَنيّةُ، فهُم كذلكَ مُذْ كانُوا، فمنهُم الّذِي يُعنَى بالفَنِّ في شِعرِهِ، ومنهُم الثّائرُ على الحَياةِ، ومنهُم الصَنَّاع الّذِي يَحفلُ شِعرُه بالصّنعَةِ الهادِئةِ الجَميلةِ، وسِواهُم.

وقدْ أشَرنا إلى أنّه لا غِنَى للشّاعرِ عنْ مَعرفةِ أصالةِ الشِّعرِ، للمُحافَظَةِ عَليهَا، والإبداعِ في ضَوئِها، بل والإضافَةِ لها، وهذا هُو الأملُ الّذِي نَرجُو أن يُحقّقَه شُعراؤُنا المُعاصِرون، ليُنشِدُوا أعذَبَ الألحانِ منْ وَحيِ القَوافي برُؤيةٍ إبداعِيةٍ، وتوسُّلٍ بالصُّور الشّعريّةِ، فليسَ التّجديدُ في الشِّعرِ هُو الثَّورةُ على القَديمِ، والدَّعوةُ إلى الحُرّيةِ الأدبيّةِ والفَنّيّةِ، بل هُو الجَمعُ بينَ القَديمِ والحَديثِ، وحِرصُ الشَّاعرِ على التّوفيقِ بينهُما، والمَزجِ بينَ عناصِرِهما، وذلك مَنهَجُ المطبُوعِين مِنَ الشُّعراءِ.

إنّ الانطِلاقَ منَ الأصالَةِ إلى التَّجديدِ هو عُنوانُ النُّبوغِ الشِّعريِّ، وليسَ التّجديدُ –كما أشَرنا– هو الإتْيانُ على القَديمِ من القواعِدِ، بلْ هُو الإبداعُ في ضوئِهِ، وبذلكَ يَحمِلُ الشّاعرُ قيثارةَ الشِّعرِ، ويتغنَّى بها كالبُلبلِ الصَدّاحِ، فيَصيرَ صاحِبَ مَنهجٍ فَنِيّ، ويَثرَى بذلكَ ديوانُ الشِّعرِ، وهُنا تَظهرُ عَبقريّةُ الشَّاعرِ، الّذِي امتلَكَ الموهِبةَ، واستوعَبَ التّراثَ، فذلكَ يُحفّزُهُ على الإتيَانِ بِرَوائعَ شِعريةٍ جَديدةٍ، فتَسمُو روحُ الإبداعِ، وتَخبُو قُيودُ التّقليدِ، وهذا رَهينٌ بالشُّعراءِ المُجوِّدين المُجدِّدين، ولا شَكّ أنّ التَّجديدَ الشِّعريَّ هو الّذِي تَثرَى بهِ المَعَاني، ويَبعثُ على اليَقَظةِ، ويُكسِبُ الحَياةَ رَونقًا وبَهاءً، ويُضيف للشِّعرِ نَغمًا جَديدًا وتَعبيرًا فَريدًا.

وبذلِكَ يَكونُ الشَّاعرُ قد ارتَقَى إلى مَنزلةٍ سامِقَةٍ في سماءِ الشِّعرِ العَرَبيِّ، يَرِثُ طابَعَ أبي عُبادةَ البُحتريِّ، وعُذوبةَ مِهيارِ الدَّيلميِّ، ورقّةَ البَهاءِ زُهَير، وبلاغةَ مَحمود سامِي البارُودِي، وشاعريةَ أحمدَ شَوقي، ورُومانسيّةَ إبراهيمَ نَاجِي.

وأولَى بالشُّعراءِ أن يَحرِصُوا على الإبداعِ الفَنِّي الهادِفِ، ويجعَلُوا الشِّعرَ في خدمَةِ الأغراضِ النّبيلةِ، حَتَّى يَقِفُوا في مِحرابِ الشِّعرِ مُبدعِين مُجدِّدين، انطلاقًا منَ المَعَاني الآسرةِ، والأَخْيِلَةِ السّاحرةِ، لتبليغِ رِسالتِهم الهادِفةِ، والتَّعبيرِ بنَبَضاتٍ صَادقةٍ، لبلُوغِ ذِروةِ الإبدَاعِ والتَّجديدِ.

> "الشَّاعرُ الذي يَمتلكُ المَوهِبَةَ، ويَستوعبُ التّراثَ، ويُحسنُ استخدامَ المُوسيقى الشِّعريّةِ، ويُبدعُ في ابتِكارِ الصُّورِ والأَخْيِلةِ، ويَجمعُ بين العَواطِفِ الوِجدانيّةِ، والوَصفِ الفَنّي، مع سَلامةِ اللّغةِ، وشرفِ المَضمونِ، هو الشّاعرُ المُبدِعُ المُجدِّد"

من وحي المعجم التّاريخي: وقفاتٌ لغويّة

التَّصحيفُ المُضاعَفُ

رفيق سربيس

قال لي أَحَدُ الغَيّورينَ على لُغَةِ العَرَبِ: لِمَ حَكَمْتَ على الجَذْرِ (ح ج د) بالإِهْمالِ، وعلى ما حُرِّرَ فيهِ مِنْ مَداخلَ بالتّصحيفِ، وهذا أبو عَمْرٍو الشَّيْبانيُّ يقولُ في مَطْبوعِ كِتابِ الجيمِ: "والمُدْعِنُ؛ والمحْجِنُ، والجَدِعُ، والمحْثِلُ والـمُقَرْقِمُ، والحَجِدُ، والسُّرْسورُ: السَّيِّءُ الغِذاءِ"، ويُقرُّه الـمُعْجَمُ الكبيرُ فيقولُ: "الحَجَدُ: السَّيِّءُ الغِذاءِ (عَنِ الشَّيْبانيِّ)؟

فقُلْتُ:إِذا بَحَثْنا عَنْ لَفْظِ (الحَجِدِ) في جَميعِ المعاجِمِ لا نَجِدُ لَهُ أَثَرًا لا بهذا المعْنى، ولا بمعْنًى آخرَ، وحتّى الـمُعْجَمُ الكَبيرُ ذَكَرَ هَذا اللَّفْظَ دونَ جَذْرٍ يَرْجِعُ إِليهِ، فكَأَنَّهُ لم يَثْبُتْ عِنْدَهُ.

وغالِبُ المعاجِمِ المطْبوعَةِ تَذْكُرُ لَفْظَ الحَجِنِ بالنّونِ بَدَلَ الدّالِ بِمعْنى: السَّيِّءِ الغِذاءِ مِنها:

الـمُنَجَّدُ في اللُّغَةِ (309هـ): "والحَجْنُ: سوءُ الغِذاءِ، والحَجِنُ: السَيِّىءُ الغِذاءِ".

الـمُذَكَّرُ والـمُؤَنَّثُ (328هـ): "والحَجِنُ السَّيِّءُ الغِذاءِ".

مُعْجَمُ ديوانِ الأَدَبِ (350هـ): "وهُوَ الحَجِنُ، يُقالُ: صَبيٌّ حَجِنٌ، أي: سَيِّءُ الغِذاءِ".

الـمُخَصَّصُ (458هـ): "أَبو عُبيد، السَّغِلُ والوَغِلُ، السَّيِّءُ الغِذاءِ وكَذَلِكَ الحَجِنُ وقَدْ حَجِنَ حَجَنًا".

مَجْمَعُ الأَمْثالِ (518هـ): "الحَجْنُ: تَخْفيفُ الحَجِنِ، وهُوَ الصَبِيُّ السَّيِّءُ الغِذاءِ، يُقالُ: حَجِنَ حَجَنًا".

الـمُعْجَمُ الكَبيرُ: "و ـــــ: السَّيِّءُ الغِذاءِ يُقالُ: صَبِيٌّ حَجِنٌ".

وفي الوَقْتِ نفسِهِ لا أَثَرَ للَفْظِ (الحَجِنِ) بِمَعْنى سَيِّءِ الغِذاءِ في كِتابِ الجيمِ، فَدَلَّ هذا عَلى تَصْحيفِ اللَّفْظِ في مَطْبوعِ كِتابِ الجيمِ. لكِنْ هُنا سُؤالٌ أَيْضًا: هَلْ سَلِمَ لَفْظُ الحَجِنِ مِنَ التَّصْحيفِ؟!

الجَوابُ: لا -طبعًا- فَهُوَ مُصَحَّفٌ مِنْ (جَجِنٍ) بتَقْديمِ الجيمِ عَلى الحاءِ، فَقَدْ جاءَ في كِتابِ (تَصْحيحُ التَّصْحيفِ، وتَحْريرُ التَّحْريفِ): "حَدَّثَني أبو عَبْدِ الله الحُسَينُ بْنُ عُمَرَ قال سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الحُسَيْنِ الإِسْكافِيَّ يقولُ:

وقَدْ عَرِقَتْ مَغابِنُها وجادَتْ

بِدِرَّتِها قِرَى حَجِنٍ قَتينِ

فأَنْشَدَ البَيْتَ أَبا محلم فقال: سَلْه عَنْ تَفْسيرِهِ، فسَأَلَهُ، فقالَ: جادَتْ النَّاقَةُ بعَرَقِها: ظَهَرَ هذا القِرادُ الحَجِنُ، قُلتُ: ما الحَجِنُ؟ قالَ: صَغيرٌ، فعَرَّفْتُ أَبا محلم، فقال: صَحَّفَ واللهِ، إِنَّما هُوَ: قِرى، أَي عَرَقُ النَّاقَةِ قِرًى لهذا القِرادِ، ولَيْسَ بحَجِنٍ، إِنَّما هُوَ جَجِنٌ، بالجيمِ قَبْلَ الحاءِ وهُوَ السَّيِّئُ الغِذاءِ، وقَتينٌ: قَليلُ الطَّعْمِ". انْتَهى كَلامُهُ.

وجاءَ أَيْضًا في بَقِيَّةِ المعاجِمِ لَفْظُ (الجَحِنِ) بتَقْديمِ الجيمِ على الحاءِ بمَعْنى: سَيِّءِ الغِذاءِ:

العَيْنُ (170هـ): "والجَحِنُ: السَّيِّءُ الغِذاءِ، قال الشَّماخُ يَذْكُرُ ناقَةً:

وقد عَرِقَتْ مَغابِنُها وجادَتْ**بدرَّتِها قِرَى جَحِنٍ قَتينِ".

الغَريبُ الـمُصَنَّفُ (224هـ): "قال الكسائِيُّ: السَّغِلُ والوَغِلُ: السَّيِّئُ الغِذاءِ، ومِثْلُهُ: الجَحِنُ والجَدِعُ".

الجَراثيمُ (276هـ): "فإِذا أُسيءَ غِذاؤُهُ: فَهُوَ سَغِلٌ ووَغِلٌ، وجَحِنٌ وجَدِعٌ".

الكامِلُ في اللُّغَةِ والأَدَبِ (285هـ): "والجَدِعُ: السَّيِّئُ الغِذاءِ، وهُوَ الجَحِنُ والقَتينُ".

جَمْهَرَةُ اللُّغَةِ (321هـ): "الجَحِنُ: السَّيِّئُ الغِذاءِ صَبِيٌّ جَحِنٌ إِذا أُسيىءَ غِذاؤُهُ".

الاشْتِقاقُ (321هـ): "والجَحِنُ: السَّيِّئُ الغِذاءِ مِنَ النَّاسِ

والبَهائِمِ".

تَهْذيبُ اللُّغَةِ (370هـ): "أبو عُبَيْدٍ عَنِ الكِسائِيِّ: الجَحِنُ: السَّيِّءُ الغِذاءِ وقَدْ أَجْحَنَتْهُ أُمُّهُ".

الـمُحيطُ في اللُّغَةِ (385هـ): "والجَحِنُ: السَّيِّءُ الغِذاءِ".

غَريبُ الحَديثِ (388هـ): "ويُقالُ للصَّبِيِّ السَّيِّءِ الغِذاءِ: الجَحِنُ والجَدِعُ".

مَقاييسُ اللُّغَةِ (395هـ): "فالجَحَنُ سوءُ الغِذاءِ، والجَحِنُ السَّيِّءُ الغِذاءِ".

كِتابُ الأَفْعالِ (السَّرَقُسْطي): "والجَحِنُ السَّيِّئُ الغِذاءِ".

الـمُحْكَمُ والـمُحيطُ (458هـ): "الجَحِنُ، السَّيِّئُ الغِذاءِ".

اللِّسانُ (711هـ): "الكِسائِيّ: الجَحِنُ السَّيِّءُ الغِذاءِ".

وأَمّا الزَّبيدِيُّ فاكْتَفى بتَعْريفِ المصْدَرِ دونَ الوَصْفِ فَقالَ: "ومِمَّا يُسْتَدْرَكُ عَلَيْهِ: الجَحانَةُ: سوءُ الغِذاءِ".

الخلاصة: الحَجِدُ كَلِمَةٌ مُصَحَّفَةٌ مِنَ الحَجِنِ، والَّتي بِدَوْرِها تَصَحَّفَتْ مَنْ جَحِنٍ لِذا سَمَّيْتُهُ: التَّصْحيفَ الـمُضاعَفَ.

وفي الختام: الحَذَرَ كُلَّ الحَذَرَ -ونَحْنُ نُؤَرِّخُ لِكَلامِ العَرَبِ- مِنَ النُّصوصِ الـمَطْبوعَةِ، فكَثيرٌ مِنْ مُحَقِّقي الكُتُبِ تَساهَلوا في جانِبِ ضَبْطِ اللَّفْظِ اكْتِفاءً بِفَهْمِ القارِئِ لسِياقِ الكَلامِ، غَيْرَ أَنَّ التَّأْريخَ الـمُعْجَمِيَّ يَسْتَوْجِبُ مِنّا أَنْ نَحْرِصَ عَلى ضَبْطِ اللَّفْظِ والمعْنى كَيْ لا نُؤَرِّخَ للَفْظٍ لَيْسَ عَرَبِيًّا، أَوْ لـمَعْنًى لَمْ تَقْصِدْهُ العَرَبُ.

د. محمد محمد عيسى

مِنْ فَيْضِ التَّجَلِّياتِ

لَمَّا تَغَيَّبَ عَنْكَ الْأَهْلُ وارْتَحلُوا ... وَاسْتَوْطَنَ الْحُزْنُ حَتَّى صَارَ كَالْجَارِ
أعطاك رَبُّكَ إِسْرَاءً وَتَرْقِيَةً ... حَتَّى انْتَهَيْتَ إِلَى آلٍ وَأَنْوَارِ
قَدْ أَدْرَكَتْكَ مِنَ الرَّحْمَنِ نَافِلَةٌ ... وَأَيَّدَتْكَ بِآيَاتٍ وَأَسْرَارِ
في مَأمَنِ اللهِ هَا قَدْ جِئْتَ مُرْتَقَبًا ... عَلَى الطَّرِيقِ، وَفِي جَوْفٍ مِنَ الْغَارِ
إنْ أَخْرَجُوكَ فَمَا كَانُوا سِوَى صُوَرٍ ... أَشْبَاحِ مَسْخٍ وَأَعْجَازٍ لِأَشْجَارِ
إِنْ أَخْرَجُوكَ فقدْ خَابُوا وَقَدْ خسِرُوا ... ضَلَّ الطُّغَاةُ وَمَا زَالُوا بِإِصْرَارِ
يَسْتَنْفِرُونَ دُعَاةَ الشَّرِّ يَتْبَعُهُمْ ... نَحْوَ الضَّلاَلَةِ فُجَّارٌ لِفُجَّارِ
لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ، أَوْ حَنِقًا ... مَا كُنْتَ مقْصِدَ أَفْوَاجٍ وَزُوَّارِ
أَوْ كُنْتَ مِمَّنْ يَرُومُ الْمَجْدَ مَارَمَقَتْ ... شَأْوًا لِحَاظُكَ إِلَّا قَامَ كَالصَّارِي
لولا تُشَفَّعُ فِينَا عِنْدَ بَارِئِنَا ... مَا كَانَ مِنْ بَيْنِنَا نَاجٍ مِنَ النَّارِ

الإضمار على شريطة التفسير في القرآن الكريم

د. معتز وسام المحتسب

يَرِدُ في كتب التفسير وإعراب القرآن عبارة «الإضمار على شريطة التفسير»، أو «المضمَر على شريطة التفسير»، وهذا الاصطلاح استعمله المتقدِّمون، وقلَّ استعماله عند المتأخرين، وليس له باب خاصٌّ في كتب النحو يجمع مسائله وصُوَره، لذا قد يكتنفه نوع من الغموض.

والمعنى العامُّ للإضمار على شريطة التفسير: أن يُحْذَفَ من صَدْرِ الكلام لفظٌ على أن يؤتى بما يدلُّ عليه في آخره، وهذا اللفظ المحذوف إمَّا أن يكون اسمًا مفسِّرًا لضمير، وإما أن يكون فِعْلًا عاملًا أو اسمًا بمنزلته، وعبَّروا عنه بالإضمار على شريطة التفسير؛ لأن شرط إضمار هذا اللفظ أن يأتي بعده ما يُفسِّره، وفي ذلك يقول ابن السَّرَّاج (ت: 316هـ): "واعلم أنَّهم لا يُضْمِرون شيئًا قبل ذِكْرِه إلا على شريطة التفسير، وإنما خَصُّوا به أبوابًا بعَيْنِها، وحَقُّ المضْمَر أن يكون بعد المذكور"(1).

ومن أوائل من استعمل مصطلح الإضمار على شريطة التفسير إمامُ النَّحْويِّين سيبويه (ت: 180هـ)، إذ يقول: "ولا يجوزُ لكَ أن تقول: نِعْمَ، ولا: رُبَّه، وتَسْكُتَ؛ لأنهم إنما بدؤوا بالإضمار على شريطة التفسير، وإنما هو إضمار مقدَّم قَبْلَ الاسم، والإضمار الذي يجوزُ عليه السُّكوت نحو: زيدٌ ضربتُه، إنما أُضْمِر بعد ما ذُكِر الاسم مُظْهَرًا، فالذي تقدَّم من الإضمار لازمٌ له التَّفسير حتى يبيِّنَه، ولا يكون في موضع الإضمار في هذا الباب مُظْهَرٌ"(2).

ومن خلال ما سبق يظهر أن للإضمار على شريطة التفسير صورتان رئيستان؛ إحداهما: إضمار العامل على أن يُذكَر بعدَه ما يدلُّ عليه، والأخرى: استعمال الضمير مع تأخُّر مفسِّره لفظًا وتقديرًا. وفيما يأتي بيان هاتين الصورتين، وما ورد منهما في القرآن الكريم:

الصورة الأولى: إضمار العامل على أن يُذكَر بعدَه ما يدلُّ عليه، سواءٌ كان الاسم المعمول مرفوعًا أو منصوبًا. أمَّا إضمار العامل مع كون المعمول مرفوعًا فيكون ذلك إذا ولِيَ أداةَ الشرط اسمٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:6]، فلفظ «أَحَدٌ» فاعل لفعل محذوف تقديره «استجارَكَ» يُفسِّره ما بعده؛ أي: وإن استجارك أحدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا﴾ [النساء:128]؛ والتقدير: وإن خافت امرأة خافت من بعلها نشوزًا، وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَ﴾ [النساء:176]؛ أي: إن هلك امرؤٌ هلكَ، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِ﴾ [الإسراء:100]؛ أي: لو تملِكون خزائنَ رحمة ربي، والفاعل هو الضمير المتصل (الواو)، ولكنه حين كان العامل في الآية مقدَّرًا وقع الضمير منفصلًا، وهو (أنتم). ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ﴾ [المرسلات:8-9]؛ أي: إذا طُمست النجوم، وإذا فُرجت السماء، وأمثال هذا كثير في القرآن الكريم، وهذا التقدير جارٍ على قول البصريين، فهم يقرِّرون أن أداة الشرط تختصُّ بالدخول على الفعل، فإذا دخلت على الاسم في الظاهر فإن هذا الاسم معمولٌ لفعل

(1) الأصول في النحو، تح: الفتلي (1/114).
(2) الكتاب، تح: هارون (2/176).

مقدَّر يدلُّ عليه الفعل المذكور بعدُ، وليس هذا عندهم على التقديم والتأخير[3].

وأمَّا إضمار العامل مع كون المعمول منصوبًا، فهو ما يُعرَف عند النَّحويِّين بالاشتغال، وهو أن يتقدَّم اسمَ ظاهر وبعده عاملٌ مشتغلٌ عنه بنصب ضمير ذلك الاسم المتقدِّم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:49]، فلفظ «كُلَّ» منصوب بفعل مضمَر تقديره «خَلَقَ»، يُفسِّره ما بعده؛ أي: إنَّا خلقنا كلَّ شيء خلقناه بقَدَر، وكما في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات:30]، فلفظ «وَٱلۡأَرۡضَ» منصوب بفعل مضمَر تقديره «دَحا»، يُفسِّره ما بعده؛ أي: ودحا الأرض بعد ذلك دحاها، وكما في قوله تعالى: ﴿يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان:31]، فلفظ «ٱلظَّٰلِمِينَ» منصوب بفعل مُضمَر يفسره قوله: «أَعَدَّ لَهُم عَذَابًا أَلِيمَا»، والتقدير: ويعذِّب الظالمين. وأمثلة الاشتغال في القرآن كثيرة.

والصورة الثانية للإضمار على شريطة التفسير: استعمال الضَّمير دون أن يتقدَّمه مُفسِّره، على أن يأتي مُفسِّرُه بَعْدَه، والأصل في مفسِّر الضمير أن يكون قبل الضمير لفظًا ورُتبةً، أو رُتبةً دون اللفظ، ويجوز استعمال الضمير دون ذكر مفسِّره، وذلك إذا دلَّ السياق عليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر:1]، فقد استعمل الضمير في (أَنزَلۡنَٰهُ) من غير أن يتقدَّم مرجع لهذا الضمير يوضِّح المراد منه، والسياق يدلُّ على أن الضمير راجع إلى القرآن الكريم، أما أن يرد مفسِّر الضمير متأخرًا عنه في اللفظ والرُّتبة فهذا على خلاف الأصل في استعمال الضمير، وهو من الإضمار على شريطة التفسير، ويدخل في هذه الصورة: ضمير الشَّأن والقِصَّة، وهو الضمير المفسَّر بجملة بعدَه، فإن كان ضميرَ مذكَّر سُمِّي ضمير الشَّأن، نحو قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:1]، فالضمير «هُوَ» تُفسِّره جملة «ٱللَّهُ أَحَدٌ»، وإن كان ضميرَ مؤنَّث سُمِّي ضمير القِصَّة، نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:46]، فالضمير في «فَإِنَّهَا» تُفسِّره جملة: «لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ».

ويدخل في الصورة الثانية أيضًا فاعل «نِعْمَ» و«بِئسَ» وما جرى مجراهما إذا كان الفاعل ضميرًا، نحو قوله تعالى: ﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ﴾ [الأعراف:177]، فالفعل «سَآءَ» فاعله مُضمَر، تقديره «هو»، وهذا الضمير يُفسِّره قوله: «ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ»، ونحو قوله تعالى: ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ [الصف:3]، فالفعل «كَبُرَ» فاعله مُضمَر، تقديره «هو»، وهذا الضمير يُفسِّره قوله: «أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ».

وذكر المفسِّرون والمعربون في الصورة الثانية أيضًا

(3) التذييل والتكميل، تح: هنداوي (6/349).

الإضمارَ في قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف:77]، فالضمير في «فَأَسَرَّهَا» راجع إلى مقالةٍ تفسيرُها: «أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ»، فهو إضمار على شريطة التفسير.

ويدخل في الصورة الثانية أيضًا معمول العامل الأول في باب التنازُع، عند إعمال الثاني في الاسم الظاهر، والمراد بالتنازُع عند النَّحويِّين أن يتقدَّم في اللَّفظ عاملان فأكثر، ويتأخر عنهما معمول مطلوب لكل واحد منهما، سواء كان هذا المعمول مرفوعًا أو منصوبًا أو مجرورًا، فحينئذٍ يعمل أحد العاملين في هذا المعمول الظاهر، ويعمل الآخر في ضمير هذا الظاهر، والذي ورد في القرآن الكريم من أسلوب التنازع كان العمل فيه للعامل الثاني، وعمل الأول في الضمير، إلا أن الضمير جاء محذوفًا، فلم يرد على سبيل الإضمار على شريطة التفسير، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا﴾ [الكهف:96]، فالمعمول «قِطۡرٗا» تنازعه العاملان «ءَاتُونِيٓ» و«أُفۡرِغۡ»، فعمل فيه الثاني، وعمل الأول في ضميره، إلا أن هذا الضمير حُذف لكونه فضلة، ولو كان مثبَتًا لقيل: (آتونيه أفرغ عليه قطرًا) فلو كان كذلك لكان من الإضمار على شريطة التفسير.

فهذا مفهوم الإضمار على شريطة التفسير، وصوره الواردة في القرآن الكريم، والحمد لله رب العالمين.

المجلس اللغوي

في رحاب مجمع اللغة العربية بالشارقة

"المجلس اللغوي الأول"

"المجلس اللغوي الثاني"

"المجلس اللغوي الثالث"

حكـومـة الشــارقـة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

إصدارت مجلة العربيّة لساني السابقة

المدينة الجامعية - الشارقة - الإمارات العربية المتحدة
مبنى مجمع اللغة العربية - الدور الأول
هاتف: 400 60 51 6 971+ ، فاكس: 410 60 51 6 971+ ، ص.ب: الشارقة ، 1973
البريـد الإلكتروني: info@alashj.ae ، الموقع الإلكتروني: www.alashj.ae

حكومة الشارقة Government of Sharjah

مجمع اللغة العربية بالشارقة

ARABIC LANGUAGE ACADEMY IN SHARJAH

المعجم التاريخي للغة العربية

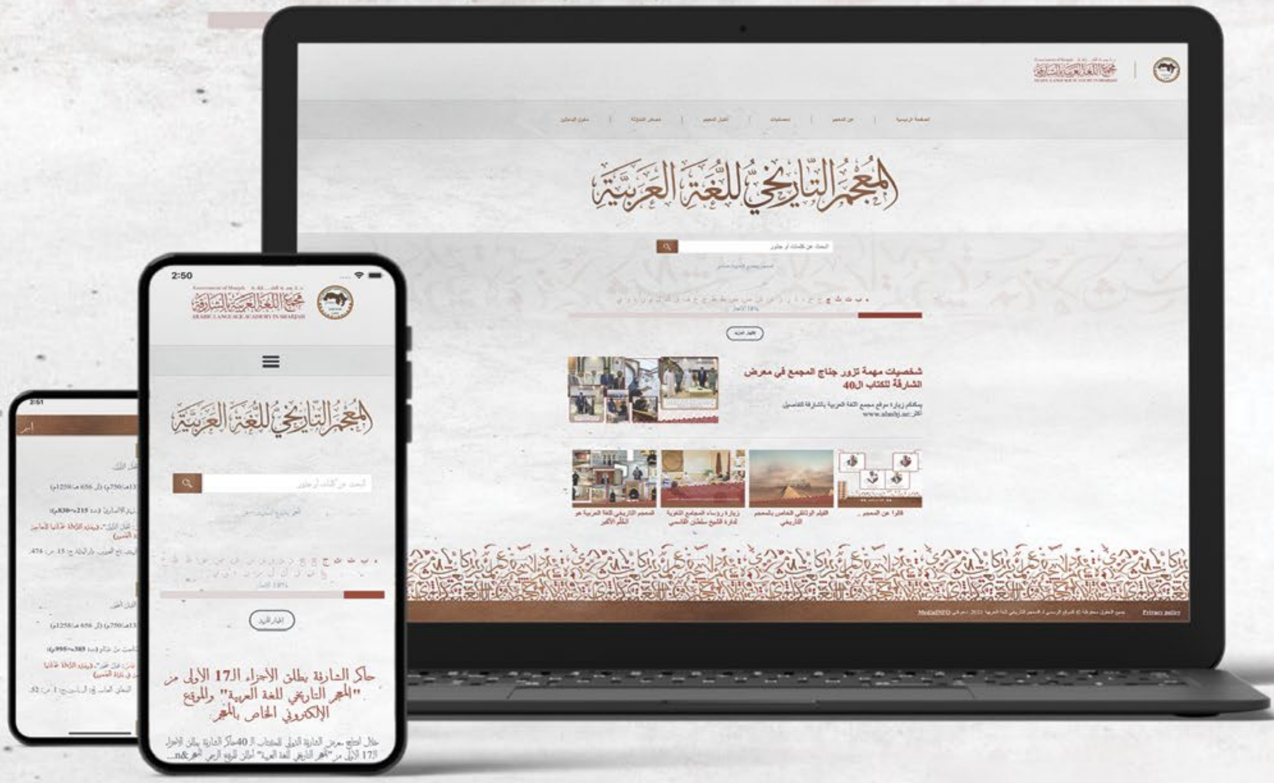

تطبيقنا الذكي متوفر على

Download on the App Store

GET IT ON Google Play

EXPLORE IT ON AppGallery

www.almojam.org